باب اللاعنف

رؤية إسلامية أولية في ثقافة التسامح

تأليف
صالح الحسن

ألف باء اللاعنف

رؤية إسلامية أولية في ثقافة التسامح

تأليف

صالح الحسن

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

العنوان الالكتروني:
saleh_hassan@hotmail.com

الإهداء

الى كل باحث عن فكرة مضيئة تنير له زقاق الطريق..

الى رواد الفكر في الغرب الباحثين عن الحقيقة

الى وسائل الإعلام البارعة في التلفيق..

الى الضالعين في كيل التهم للإسلام باعتباره نبع الإرهاب واصله..

الى أبناء الأمة المغررين خلف حجب التشكيك بفكر الإسلام الصافي..

الى حاملي لواء الإسلام والمتمنطقين بدعاوى العنف الشرعي!!

اليكم جميعا اهدي هذه الباقة المتواضعة لعلها تكون همسا هادئا في زمن الضجيج..

مُقَدِّمَة

لا شك أن الجمود المنهجي والأصولي أحد أسباب تكلّس القيم والمنطلقات الفكرية في الفكر الإسلامي حيث يفضي إلى عدم قدرتها التعاطي مع متغيرات الواقع الاجتماعي والسياسي وإدارة المرحلة التي تمضي التيارات الإسلامية والفكرية في تلازم وتداول مجرى الحياة اليومية فيها.

وقد ابتليت التيارات الفكرية الإسلامية بمطب الجمود الفكري وهروبها إلى دلفة التشريع الجامد والاعتقادات الماضوية، حتى ظلت لسنوات عديدة «تستحي» من التغيير الفكري ومواكبة التطور والنمو العقلي، فظلت تحوم حول جملة متبنيات وأدبيات متهالكة دون أن تسعى لتطوير أصولها المعرفية وإيجاد منافذ ثقافة متأصلة حية للعمل الإسلامي.

ولعل من أكثر المصطلحات المعرفية تعرضاً للتدهور والتباين والتشويش مصطلح العنف والجهاد ودرجة التقارب والتضارب والتقاطع بين المنحنيين، والخشية الدائمة من استثارة المصطلح ومناقشته في أروقة ومنتديات التداول الفكري خوفاً من افتقاد عناصر الحركة أو خشية من استنهاض مرض الترهل والجمود في عناصر التحرك أو رهبة من اتهامها بالانهزامية أو جنوحها نحو الفكر التبريري والمصلحي الذي يبدو كشبح رابض على عقول قادة ورجالات الحركات.

إن هذا ناشئ من اضطراب معرفي «فعسر إدماج هذه المفاهيم في

صيرورة الفكر والواقع الإسلاميين ناتج عن اضطرابات معرفية جوهرية حدثت من عملية النقل المفهومي وتعود جذور هذه الاضطرابات إلى تباين أنساق التطور بين المجتمعات الإسلامية والغربية، لذلك حدثت عملية محاكاة أو تقليد دون أن تحدث عملية استيعاب وتصور وإدراك وهو ما يفسر أن مفاهيم الديمقراطية والوطنية والقومية والعلمانية والحداثة أيضاً بقيت إلى يومنا هذا مظاهر دون مضامين وباتت إشكاليات يدور حولها الصراع الفكري»[1].

في الوقت ذاته لا نزال نلحظ تبايناً يصل إلى حد التناقض في المصطلحات المتداولة في ساحة العمل خاصة في مفردة العنف، فبعض يحلو له أن يطلق عليها بالجهاد وآخر يسميها النضال ومن يرفضها جملة وتفصيلًا ومن يحبذها بعللها، فيما فريق يقتطعها ويجزئها حسب أهواءه وطبيعة الموقف وتغير الظروف!!.

هذا الخلل المعرفي لا بد أن يدفع رواد الفكر لصياغة تصور موحد حول مجمل مصطلحات العمل الإسلامي وإيجاد مضمون إدراكي واضح لمفهوم اللاعنف ناهيك عن أهمية الشجاعة الأدبية في استثارة الأفكار المتجددة دون خشية جيل التقليديين أو انتفاض العاملين وتقديم الاستقالات الواحدة تلو الأخرى..

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نلحظ أن عالمنا الكوني يغرق في معمعة الحروب والنزاعات الدولية والعسكرية وحتى المدنية، وفي ظل النظم العسكرتارية والإرهابية التي تمارس فنون القتل والتعذيب والإبادة

(١) (أحمد، زكي نحو معجم معرفي لمصطلحات العمل الإسلامي - مجلة البصائر العدد ٩).

البشرية دون أن يهتز لها عرق، حتى أضحى الإرهاب والعنف من أكثر المشاكل التي تؤرق المجتمع الإنساني وتهدد وجوده.

حيث يصرف عالمنا ٥٠٠ ألف مليار دولار للتسلح سنوياً وتؤكد التقارير أنه إذا نشبت حرب عالمية سيسقط ٢٠٠ مليون قتيل في الساعات الأولى من بدء الحرب، ولو أردنا إعدام هذا العدد كم ساعة سيستغرق لتنفيذ المهمة!!

في الوقت نفسه يتهدد العالم بين الفينة والأخرى حرب نووية حيث تشير التقارير أن الذي سينجو من الضربة النووية الأولى في الحرب القادمة سيظل يعاني من الإشعاعات النووية لمليون جيل!! هذا إذا تغاضينا عن الأسلحة البيولوجية والكيماوية حيث أن مائة طن منها تكفي لإنهاء الحياة على وجه الكرة الأرضية بأكملها!!!.

هل يحق لنا أن نتساءل لماذا نفكر بجنون ولماذا عالمنا مجنون مجنون!! لماذا نتجه نحو الإرهاب والعنف ونبارك ذبح البشر ونحرهم، ثم نصفق لأولئك المتلوثون بدم الجرائم والإبادات البشرية لمجرد اعتلائهم كراسي مهترءة ويربطنا بهم مصالح ومال وثمة صفقات تتم في الهجير وتحت الطاولة!! لماذا نلهث خلف الجنون برغم أن رؤوسنا تحمل عقلًا نيراً يرشدنا إلى إحداثيات الصواب والخطأ..

إننا مطالبون أن نفكر كبشر ونتأمل واقعنا من منطلق إنسانيتنا ونعبد طريق التعقل من أجل مستقبلنا ومستقبل أجيالنا ومن أجل حياة فضلى يعسعس الاستقرار والأمان لشعوبنا وعالمنا الزاهر، محاولين استلهام تجسيد فلسفة اللاعنف ومفاهيمها الإدراكية من وحي تصوراتنا الشخصية

ومراقبتنا للأحداث والوقائع الحادثة.

إن هذه الدراسة المتواضعة محاولة للتفكير البشري في أكثر المصطلحات المعرفية اضطراباً ألا وهو **اللاعنف** وسنحاول أن نجسد فلسفة اللاعنف ومفاهيمها الإدراكية مستمدين من تجارب الواقع العملي والحياتي وتجارب الحركات الإسلامية، راجين أن نوفق لتحقيق قدر يسير في كشف اللبس وإعانة الإنسانية مسيرتها الخالدة متمنين أن يمد الآخرون لنا يدهم لتسديد الأفكار وتلاقحها من أجل صالح وخير امتنا.

المؤلف

مدخل ١ :

ملامح التشويش والغموض

يبدو للمطلع من أول وهلة أن الولوج في قمقم هذا الموضوع كمن يلج في سم الخياط لما يحتويه من غموض وتناقضات صارخة يقع فيها الجميع دون استثناء حتى أولئك الذين يتشدقون بالدفاع عن حقوق الإنسان وصون حريته وكرامته ونبذ كافة أشكال الإرهاب.

بل قد نجد أمراً أشد حيرة للعقول من قبل أولئك الموغلين في التدين والتمسك الروحي بمعتقداتهم - الناهية عن التطرف والعنف - حين يسبحون في بحر الوهم ويغرقون في قيعان الإرهاب زهواً وفخراً!!.

من هنا علينا أن نقف برهة لنضع كل شيء في نصابه ونحاول قدر الإمكان أن نحدد معاني المصطلحات - برغم صعوبة الأمر في مفهوم العنف - ذلك أن قبول استخدام كلمات ليس لها مدلول محدد في أذهان الناس يشكل خطورة حادة إن لم نحدد المعنى الذي نقصده. يقال إن ماري انطوانيت زوجة ملك فيصري كانت من البساطة بمكان أن فقدت رأسها تحت المقصلة لأنها حينما علمت بثورة الشعب لأنه لا يملك خبزاً، تساءلت بقصور فهم شديد : ولماذا لا يأكلون البسكويت بدلًا من الخبز!!.

إن تغاير المفهوم يخلق إرباكاً واضحاً في معرفة حقيقية القيمة الفكرية، فكلنا قد يتفق على أهمية الالتزام بالأخلاق والنزاهة والشرف ولكن نظراً لاختلاف المعنى باختلاف الزمان والمكان والظروف والقائل والمستمع نجد تضارباً وتفاوتاً في معنى الأخلاق..

ألا نرى كيف يتلاعب الغرب مثلًا في مفهوم الإرهاب والعنف حينما يحوله إلى مجرد مصطلح فضفاض يلبسه على من يشاء وينزعه عمن يشاء حسب أهوائه ومصالحه دون أن يضع مفهوماً واحداً للإرهاب أو يقنع الجميع بمنطقية مساراته!!.

أو نلحظ تلاعباً في الألفاظ بين فئات متعددة من الإسلاميين والوطنيين على حد سواء في مفردة العنف والتي أضحت نضالًا وجهاداً وغيرها من الاصطلاحات.

إن مفهوم العنف مفهوم مركب متعدد الصور والأبعاد والمستويات، ومن الصعب جمع كل هذه الصور والأشكال في إطار نظرية واحدة تفسر كل هذه الأمور.

هذه المعضلة أدت إلى خلق تناقضات في تفسير هذا المفهوم كانت وليدة ثمة حقائق ماثلة للعيان ألقت بظلالها على الوعي السياسي والاجتماعي والأخلاقي وخلقت نوعاً من الربكة والغلط في أدمغة الكثيرين.

وهذه التناقضات والشبهات نستطيع أن ندرجها بالتالي :

١ - إن اجترار مصطلح الإرهاب والعنف من قبل قوى لوصف قوى أخرى لا يعكس أحياناً مجرد سوء استخدام المصطلحات، بقدر ما يعكس تبايناً في المصالح والأهداف يسعى معه الطرف الأول إلى تشويه صورة الطرف الثاني حتى ولو لم يلجأ هذا الأخير - موضوعياً - إلى أي أسلوب إرهابي بالمعنى الفني للكلمة.

إن تشتت المعايير وتضاربها يخلق ثمة توصيفات مغلوطة هدفها إلقاء

التهم على الطرف الآخر دون إتاحة مساحة للحوار، فمعيار الهدف من العمل العنيف يفسره كل طرف بمفهوم مختلف، فبعض يختار الدين منطلقاً وآخر يعتبر من دواعي الوطنية والدفاع عن تاريخ وتراث البلاد وآخر يحسبها خيانة وما أشبه.. ومعيار هوية الطرف الذي يقوم بالفعل الإرهابي حيث يسمي البعض العنف بالعنف الرسمي والشرعي أو يطلق المناهضون لذلك المصطلح بالعنف اللاشرعي، كما أن النطاق الذي يتم فيه الفعل العنيف من حيث الوسط والميدان الذي يقع فيه العمل الإرهابي يمكن أن يأخذ معنى عمل وطني أو محلي أو إرهاب دولي أو ما أشبه..

ويلاحظ أن كل طرف يحاول التلاعب بقدر كبير من الألفاظ من أجل تحقيق مكاسبه الإعلامية والسياسية وجلب ولاء الجماهير لصالحه بغض النظر عن حقيقة الأمر ودوافعه.

٢- التضارب بين مفهومي الشرعية (Legitimacy) والمشروعية (Legality) فالشرعية تدور حول فكرة الطاعة السياسية والأسس التي يتقبل أفراد المجتمع النظام السياسي ويخضعون له طواعية أي أنها فكرة ومعتقد تتعلق بأساس السلطة وكيفية ممارستها ومصدرها قد يكون الدين أو الكاريزما أو التقاليد أو الإنجاز (الفاعلية). بينما المشروعية مفهوم قانوني يتمثل في خضوع نشاط السلطات الإدارية ونشاط المواطنين للقانون الوضعي ومصدرها القانون الوضعي، وبالتالي قد تكون السلطة مشروعة (مطابقة لاحكام القانون) ولكنها غير شرعية لرفض الجماعة لها بسبب عدم تلاؤمها مع قيمهم وتوقعاتهم. والثورة ضمن هذا المصطلح شرعية عندما يتقبلها أفراد الشعب ويتكتلون خلف قيادتها لإنجاز المهام الثورية وغير مشروعة لمخالفتها القوانين القائمة، والتجاوز عن شرعية

السلطة أو فقدانها يؤدي إلى فقدان مبرر طاعتها أما إساءة استعمال المشروعية أو التجاوز عليها فيترتب عليه جزاء مدني أو جنائي توقعه المحاكم على الشخص[1].

من هنا يبدو جلياً أن ادعاء كل فئة بمشروعية عملها النضالي ضد السلطة ومحاولة السلطة إسقاط هذا الفعل على قالب الإرهاب وهدم الأركان الأساسية للمجتمع وقلب نظام الحكم والتخابر مع دولة أجنبية وما أشبه - منطلقاً من ثوابت الدستور الوضعي أو النظم الوضعية التي قام عليها المجتمع - وما يتبعه من ضجيج إعلامي وحرب كلامية نابع من تشابك المفهومين وعدم وضوحهما. إن هذا الخلط يرتبط في مجال العلوم الاجتماعية بالإغراق في استخدام الكلمات المحايدة أو ذات الطابع الفني والتي تجرد عادة من السياق الذي تتم فيه أو الهدف الذي تسعى إليه.

٣- هناك فارق جوهري بين الصراع والعنف، فمفهوم الصراع أوسع من مفهوم العنف، إذ تتعدد صوره وآلياته ويمكن تعريفه بأنه «تصادم وتعارض بين طرفين أو أكثر بينهما اختلافات قيمية ومصلحية وينخرطان في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال الارغامية التي تهدف إلى إلحاق الضرر بالطرف أو الأطراف الأخرى، مع سعي كل طرف إلى تعظيم مكاسبه على حساب الآخرين وتأمين مصادر قوته».

ويعد العنف إحدى هذه الآليات في إدارة الصراع وحسمه وتتوقف

---

(١) (أبو العبد، كمال زكي - مبدأ الشرعية في الدولة الاشتراكية، اطروحة دكتوراه جامعة القاهرة ١٩٧٥).

شدة الصراع على كم وكيف العنف المستخدم فيه، من هنا فإن السلوك الصراعي من الممكن أن يكون عنيفا أو غير عنيف[1].

إن هذا الفارق يخلق تشويشا يكتنفه خلط بين الإدارة والوظيفة أو بين الوسيلة والهدف حيث تتحلل المفاهيم في بعضها بحيث يستحيل معه صياغتها بشكل منطقي ومعقول، إذ أحياناً وفي خضم الصراع تتحول الرموز في الصراع كمثل حرق علم دولة ما أو تحطيم تمثال معين شيئاً فشيئا إلى منارة ومسعى يضيع كل منطلقات وأهداف الفئة المنفذة فتتحول فجأة إلى أداة مخربة ومثيرة للرعب، حتى نجد أنفسنا فجأة في دائرة العنف بعدما كنا نختط وسيلة من وسائل الضغط في الصراع الشامل. أو أحياناً يقصد من الصراع بين طرفين حمل رسالة تحذيرية إلى الضحايا المحتملين الجدد من خلال إيقاع الرعب في قلوبهم فتقوم مثلًا بتفجير توقع مئات الضحايا في سبيل إيصال رسالة عابرة حتى تجد نفسها مرغمة على الوغول أكثر فاكثر في العنف لأنها أضحت متورطة ولا يمكن الرجعة حينها!!.

إن عدم استيعاب أدوات الصراع وشجب العنف به وكأنه لا سبيل غيره يمثل انحرافا وانحلالا في استيعاب الأدوات والوسائل والأهداف مما يؤدي إلى خلط بين أعمال متباينة : مشروعة أو لا مشروعة، وطنية أو استعمارية، قومية أو عنصرية وما أشبه.

٤ - لازال مفهوم العنف يأخذ منحنيات تفسيرية متفاوتة يصعب معه

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق - ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٢).

الإرساء على قاعدة تعريفية محددة، حيث يرى الكثير من الباحثين والفلاسفة أن العنف ظاهرة إنسانية طبيعية حيث وجد مع الإنسان في كل التاريخ البشري فقد اعتبر هوبز هذه الحالة حرب الجميع ضد الجميع ويؤيده فرويد حيث يعتبر الإنسان كائنا تنطوي مكنوناته الغريزية على قدر لا يستهان به من العدوانية ويرى أن الحضارة مهددة باستمرار لأن الأهواء الغريزية أقوى من الاهتمامات العقلية[١].

فيما يربط (جور) بين الإحباط Frustration والعدوان Aggression حيث يؤكد أن الحرمان النسبي يؤدي إلى التوتر الذي ينشأ عن التعارض بين ما ينبغي أن يكون وبين ما هو كائن بالفعل فيما يتعلق بإشباع القيم الجماعية الأمر الذي يدفع الأفراد إلى العنف[٢].

لكن ماركس يخالف ما ذهب إليه الآخرون حيث يعتبر العنف ظاهرة غير طبيعية بل سمة للحالة الاجتماعية التي أفسدها الاستئثار بوسائل الإنتاج، فهو صراع طبقات وليس صراع الجميع كما يقول هوبز.

من ناحية أخري يلحظ من خلال تعقب نشأة المجتمعات السياسية إلى أن مظاهر الإرهاب والعنف كانت الأداة السياسية الأولى لسيادة المجتمعات القديمة والمعاصرة حيث شكلت نقطة التحولات التاريخية التي شكلت قسمات العصور الوسطى والمعاصرة (الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر والثورة البلشفية في أواخر القرن التاسع عشر) وحتى القرن العشرين الذي يرجع البعض نشأة الإرهاب إلى النتائج الهامة التي

---

(١) (فرويد : قلق الحضارة : ترجمة جورج طرابيشي بيروت دار الطليعة ١٩٧٧).

(٢) (علي، د. حيدر إبراهيم ظاهرة العنف والتطرف منتدى التنمية يناير ١٩٩٦).

أسفرت عنها الحرب العالمية الثانية، مما جعل الكثيرين يؤمنون بأن العنف وسيلة استحقاقية لتحصيل الاستقرار. حتى أن الذين حاولوا التنظير للإرهاب في سياق الثورة والحرب الثورية المقدسة إنما لاحظوا حقيقة أن الإرهاب غالباً ما ساد حيث لم تكن هناك أرضية صالحة لمستوى أرقى من العنف مثل حرب العصابات أو الحرب التقليدية.

بينما يرى آخرون إلى ضرورة التمييز بين القوة والعنف بالذات في عملية قيام المجتمعات المستقرة ونشأة الدول لأن القانون الوضعي والدساتير المختلفة تحتوي على قدر كبير من استعمال القوة والعنف أو وقف انتشاره.

٥ - إن ظاهرة العنف أضحت لشدة ذيوعها وانتشار اللجوء إليها لا تعرف وطناً أو مذهباً أو جغرافية، فلم تعد مقصورة على مجتمع أو فكر بذاته، حيث يشهد العالم نشوء أصوليات عديدة نظراً لأن العنف تعبير عن أزمة عميقة تعكس العجز العام عن حل المشاكل المتراكمة ويشترك فيها الدولة والمجتمع والحكومة والناس بمختلف طبقاتهم ونظراً للتطورات العالمية الاجتماعية والعلمية والتكنولوجية التي تتيح مجال انتشارها وتوسعها. ومن الإجحاف أن نلبس الظاهرة على ثمة عقيدة أو دين «فالعقائد ليست هي التي تولد العنف ولكن الاندفاع نحو العنف والإخفاق في حل التناقضات الاجتماعية والسياسية بالطرق السلمية هما اللذان يدفعان الناس إلى تأويل عقائدهم الدينية والعلمانية تأويلات عنيفة»[١].

---

(١) (برهان غليون في كتاب حوارات من عصر الحروب الاهلية بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٥).

لذا من اللازم أن نفرق تماماً بين محاكمة التشريع أو محاكمة التصرفات في تفسير أحداث العنف وإلا فما من اتباع عقيدة وحضارة إلا وسقطوا في وحل الإرهاب والعنف دون استثناء، فهل يعني أن تلك العقائد تؤسس للعنف وتشجع عليه؟.

بطاقة تعريفية

لذا من الأولى أن نحدد تعريفاً مبسطا للعنف خاصة وأن من ضرورات التحليل العلمي للظواهر السياسية والاجتماعية الانطلاق من التعريفات الاصطلاحية الضيقة للمفاهيم وتطويرها طبقاً لاختلاف خصوصيات هذه الظواهر من مجتمع لآخر ذلك أن التعريفات الواسعة غالباً ما تؤدي إلى تمييع المفاهيم الأمر الذي يجعل القدرة التفسيرية لها محدودة.

يرجع أحمد جلال عز الدين إلى اعتبار العنف من العناصر الأساسية للفعل الإرهابي حيث يعرف الإرهاب بأنه عمل رمزي فهو لا يستهدف الضحية في ذاتها وحسب ولكن النظام أو الجماعة أو الدولة التي تنتمي إليها، بلغة أُخْرى يمكن القول أن الفعل الإرهابي يعد رسالة موجهة إلى الأخرين والهدف الأساسي منه إحداث أثر نفسي سلبي يتمثل في حالة من الخوف والقلق والرعب والتوتر لدى المستهدفين حيث يمكن في إطارها التأثير على توجهاتهم وسياساتهم. ويقوم الإرهاب السياسي على الاستخدام المنظم للعنف أو التهديد باستخدامه[1].

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

أما تيد هندريش فيعرف العنف السياسي بأنه اللجوء إلى القوة لجوءاً كبيراً أو مدمراً ضد الأفراد أو الأشياء لجوءاً إلى قوة يحظرها القانون، موجها لإحداث تغييرات في وجود الأفراد في المجتمع وربما في مجتمعات أُخْرى»[1].

لكن علينا أن نلتقط المفهوم الأخلاقي الذي يعتبر أكثر دقة من المفهوم السياسي إذ أن العنف لا يقتصر على السلوك الإرهابي المنظم الدافع لإحداث تأثير ملموس ضد الطرف المعادي بل إنه يمتد ليشمل طرائق التفكير ولغة الحوار وأسلوب المقارعة وعقلية القوة والإرهاب ناهيك عن شمولها التعابير والألفاظ التي تكون سمة بارزة على هيئة الإنسان ونطاق تفكيره.

من هنا يمكن تعريف العنف على أنه استعمال القوة مدمرة أم غير مدمرة قام بها فرد أو جماعة بشكل منظم أو عفوي، كانت ضد أفراد أو جماعات لتغيير وضع أو سلوك معين. وتعرف أحياناً بانها قيام مجموعة أو فرد أو دولة من شأنه نشر الرعب والخوف سواء حصل من جراء ذلك اعتداء على الأرواح أو الأموال أو الأعراف أو لم يحصل.

* * *

(١) (العنف السياسي ترجمة عبد الكريم محفوظ وعيسى طنوس ١٩٨٦).

مدخل ٢

هل نحن أبرياء ؟؟

قد يظن البعض أن من السهولة بمكان أن نقوم بعملية تبرأة قيصرية لفئة ما من مكامن سقطاتها أن التقطنا قلما ورحنا في سبك الكلمات وادعاء غير المتوقع أو تفسير مدلولات الحوادث بغير معانيها - خاصة في قضية تبرئة المسلمين من العنف -، إن عسر هذه العملية ليست في تسطيرها وتحويلها إلى ثمة قطرات حبر على ورق، فما قام به الكثيرون في تاريخنا الماضي والمعاصر ملأت خزائن مكتباتنا وأرففها وأضحت سمة بارزة على مسيرتنا وتفكيرنا. إن عسرها يتمثل في صدقية الفكرة وعمقها الأيديولوجي وتوافقها مع منهجية العمل السياسي والاجتماعي وتجانسها مع إحداثيات العصر والزمان والمكان، لأن أي محاولة تغريد خارج سرب الحقيقة ستكون مجرد تزييف للواقع واستغفال العقول سرعان ما تنكشف ويظهر خواءها عاجلًا أم آجلًا..

والظن الغالب إننا - في محاولتنا كتابة هذه السطور- نعمل على إعطاء وجهة نظر حول التصور الإسلامي في قضية العنف من جذورها التشريعية والفكرية دون أن نستثني سقطات الإسلاميين وفداحة التفكير السياسي الذي يلف جنباتهم ودون أن نشطب على آرائهم المناهضة لرأينا أو ندعي خطأها، ذلك أن الإرهاب والعنف لن يتوقف وينصرف عنه المتورطون فيه إذا ما اكتشفوا فجأة أن الدين ينهى عن الإرهاب، كما أنه لن يزيد ويتضخم إذا قلنا إن الدين يدعو إليه.

إن لكل شخص تفسيره الخاص لما يعتقد أنه إرهاب أو شرف ونضال ولتكن ساحة الحوار مفتوحة للجميع ولسنا في معرض قهر الجميع في بوتقة رأي واحد أوحد، لكن من حقنا أن نوجه أصابع الاتهام لكل رأي يخل بالمنطقية والعقلانية فالصفة الإسلامية للبعض لا تمنحهم حصانة من النقد.

سقطات في الساحة

لقد فشل الإسلاميون في تقديم أنفسهم للساحة والناس والعالم بصورة تتوافق مع خطابهم الثقافي والسياسي والأخلاقي مع كل هجمات التشويه والإسقاط المحاطة بهم، وليس بالإمكان التغاضي عن بعض الظواهر التي تكشف عن روح استبدادية متكرسة وانتهاك لابسط معاني حقوق الإنسان ناهيك عن حالات الإقصاء والإلغاء والتعامل بمنطق الاستعلاء والاستقواء قد تصل إلى حد الهدم بين الإسلاميين أنفسهم.

إن ما يحدث في أفغانستان تعبيراً عن حالة من الجهل والتخلف الذي تصطبغ به فئات مسلمة حولت البلاد إلى خرائب ومتاريس قتال وفوضى عارمة بدلًا من الإنماء والإعمار. وما يحدث في الجزائر من تصفيات جسدية ونحر بالسكين وجرائم مروعة يقشعر منها جلد الإنسان يعبر عن مأساة حقيقية لايمكن تبرأة أحد منها.

هل قدم المسلمون بضاعتهم المزجاة على طاولة طاهرة نقية ناصعة أم لم يقدموا غير الغث ؟؟.

يقول الشيخ محمد الغزالي «نريد للصحوة الإسلامية المعاصرة أمرين: أولهما البعد عن الأخطاء التي انحرفت بالامة وأذهبت ريحها وأطمعت فيها عدوها.. والآخر: إعطاء صورة عملية للإسلام تعجب الرائين وتمحو

الشبهات القديمة، وتنصف الوحي الالهي. . ويؤسفني أن بعض المنسوبين إلى هذه الصحوة فشل في تحقيق الامرين جميعا، بل ربما نجح في اخافة الناس من الإسلام، ومكن خصومه من بسط السنتهم فيه».

ويوافقه في الرأي الشيخ يوسف القرضاوي إذ يقول: «لايزعجني أن يكون للصحوة الإسلامية المعاصرة أعداء من خارجها يتربصون بها، ويكيدون لها، فهذا أمر منطقي أقتضته سنة التدافع بين الحق والباطل. . إنما الذي يزعجني ويؤرقني ويذيب قلبي حسرة، أن تعادي الصحوة نفسها وأن يكون عدوها من داخلها، كأن يضرب بعضها بعضا، ويكيد بعضها لبعض، وأن يكون بأسها بينها»[1].

ويقول القرضاوي في موضع آخر «الفرد يبدأ متديناً عادياً يأخذ نفسه بتعاليم الإسلام ومبادئه وآدابه ويدعو الناس إلى الأخذ بذلك كله. ثم يواصل المتدين مسيرته متجهاً نحو التشدد مع نفسه ومع الناس، ثم يتجاوز ذلك إلى إصدار أحكام قاطعة بالإدانة على من لا يتابعه في مسيرته، وقد يجاوز ذلك إلى اتخاذ موقف ثابت من المجتمع ومؤسساته وحكومته. ويبدأ هذا الموقف بالعزلة والمقاطعة المبنية على إصدار حكم فردي على ذلك المجتمع بالردة والكفر أو العودة إلى الجاهلية ثم تتحول العزلة والمقاطعة عند البعض إلى موقف عدواني، يرى معه هدم المجتمع ومؤسساته قربة إلى الله وجهادا في سبيله لأنه مجتمع جاهلي منحرف لا يحكم بما أنزل الله»[2].

---

(١) (مجلة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات والابحاث - بيروت العدد ١٨ سنة ١٩٩٨ صفحة ١١٦).

(٢) (مجلة المسلم المعاصر العدد ٤٢٠ ص ١٤).

وتصف مراسلة الغارديان اجتماعاً في لندن دعا إليه طلاب حزب التحرير في بريطانيا عام ١٩٩٤ حيث جلس الحضور مطولاً يستمعون إلى سيل من كلمات الكراهية الموجهة إلى الغرب والحكومات العربية وإسرائيل والديمقراطية وأي شكل من أشكال الحكم الكافر وتلقى المراهقون هذه الكلمات بكل إعجاب[١].

وقد أثبتت دراسة تحليلية حول إحداث العنف السياسي في النظم العربية في الفترة من١٩٧١-١٩٨٥ إن القوى الرئيسية التي مارست العنف في النظم العربية هي بالترتيب: الجماعات والتنظيمات الإسلامية والطلبة، والقوى المنخرطة في حروب أهلية (جنوب السودان - الأكراد - حركة ظفار في عمان - جبهة البوليساريو في المغرب) والعمال والجيوش وكانت إجمالي تكرارات إحداث العنف التي مارستها الجماعات الإسلامية ٧٨ بمعدل ٢٦٪ من الإجمالي العام للقوى الرئيسية[٢].

ولعل في قراءة عاجلة لجملة من آراء المفكرين الإسلاميين في زمننا المعاصر نلحظ لغة مطعمة بالكراهية ومشجعة على العنف حيث يتهم الشيخ سعيد حوى عامة الناس المسلمين بالردة ويدعو إلى قتل السافرات وذبح من يسميهم بالزنادقة باليد في كتبه (جند الله) و(المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين) و (خطوة على طريق الجهاد). ويذهب الدكتور محمد عمارة إلى طرح مصطلح (فصيل الأنياب والأظافر) على

---

(١) (صحيفة القبس الكويتية ١٩٩٤/٢/٨).

(٢) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

الإسلاميين في إرهاب غلاة العلمانيين وخاصة «حينما يتصدى لدفع ضريبة الدم في مواجهة نظم القمع التابعة للغرب». ويتحدث السيد قطب عن ما يمكن أن نطلق عليه بثقافة صناعة الموت حيث يقول: «إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور». فيما يقول الشيخ حسن البنا «إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الميتة الشريفة، يهب لها الحياة العزيزة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة».

ويقرر السيد كاظم الحائري في كتابه الكفاح المسلح في الإسلام «حق استعمال القوة في نشر الإسلام عندما تعجز الوسائل السلمية عند ذلك». ويضيف «إن الجهاد الابتدائي أو جهاد الدعوة إلى الإسلام أو نظام فتح البلاد الكافرة ونشر الإسلام بالقوة. ويباشر المسلمون هذا اللون من الجهاد بقرار ومبادرة من الدولة الإسلامية بإعلان الجهاد ودعوة الشعوب والأمم غير الإسلامية إلى الإسلام وعرضه عليهم فإن رفضت الاستجابة إلى كلمة الحق ودعوة الهدى حمل المسلمون السلاح واستعملوا القوة لنشر الهدى والإيمان وتحرير الإنسان من سيطرة الطاغوت وتيه الجاهلية وقاموا بالفتح لتحرير وتحطيم حصون الشرك والجاهلية بالسلاح والقوة»[1].

حتى إطلاقة أسماء الكتب كانت تمثل صورة من صور التحلق حول

---

(١) (ظاهرة العنف والتطرف، منتدى التنمية ١٩٩٦).

(٢) (عرض وقراءة مجلة الأضواء الصادرة عن جماعة العلماء المجاهدين العراقيين العدد الثاني السنة الخامسة كانون الثاني ١٩٨٤ - ايران قم المقدسة).

العنف «الصواعق المحرقة على أهل البدع والزندقة» و «سلاسل الحديد في تقييد ابن ابي الحديد» و «الصارم المسلول في الرد على الترابي شاتم الرسول» وما أشبه!.

وطالما أن هناك رجال أعلام ودين وأكاديميون يؤصلون الدفاع عن العنف، ظل الإرهابي متمسكاً بعمله ووجوده ومن يمهد الجو للعنف كمن يلعب بالنار!!.

فهل نريد للإسلام أن يكون هكذا مجرد صورة من البشاعة والإجرام والعنف!! وهل الإسلام كذلك ؟؟.

* * *

الفصل الأول:

في فلسفة اللاعنف

حفل التشريع الإسلامي بمضامين حقوقية رائدة تتضمن صون كرامة الإنسان وشرفه وكيانه حيث اعتبرت حقوق الإنسان وحرياته الأساسية والضرورية لصيقة بشخصه وأن كمال إنسانيته ونقصانها مرهون بقدر تمتعه بحقوقه وحرياته. على ذلك يمكن القول إن الإسلام دين الإنسان حيث حفل القرآن الحكيم بذكر كلمة الإنسان في ٦٣ مورد وذكر لفظ بني آدم ست مرات وكلمة الناس تكررت ٢٤٠ مرة.

كما حظي الإنسان باهتمام بالغ في الشريعة الإسلامية إذ نجد أن الفقه الإسلامي في أغلب أبوابه ومجالاته متعلق بالإنسان في أحواله الشخصية والاجتماعية وغيرها حتى أن الواجبات العبادية في الإسلام نجد لها بعداً إنسانيا صريحاً كالخمس والزكاة والحج حيث قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[1].

ونحن في حديثنا عن اللاعنف سنتطرق إلى جذور وفلسفة المصطلح وكيف لنا أن نرفضه من منطلقاته الإنسانية الجذرية الباعثة على حفظ النوع البشري بل والكائن الحيواني أيضا..

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٨.

١- حق الحياة:

لا شك أن الحياة هبة من الله للإنسان ولا يحق لأحد أن يسلب هذا الحق، بل إن استعمال لفظ الحق وفق الاصطلاح الرسمي للحق حيث يقبل النقل والانتقال والسقوط، هذا الاستعمال مغلوط في مورد حق الحياة، فليس لأحد من وجهة النظر الإسلامية أن ينقل أو يسقط الامتياز الذي منحه الله للإنسان، فأي إنسان يملك عقلاً وروحاً يسعى لإدامة حياته وهو بذلك يتحمل كل المشاكل في سبيل عدم الإخلال بها في الوقت الذي نجد أشد أنماط الجاذبية للحياة تتجلى في الإنسان مما يؤكد أن حق الحياة من أكثر الحقوق أولوية وأن كل الأحياء يجب أن تتمتع به مالم تشكل عامل إخلال بحياة الآخرين وخصوصا الحياة الإنسانية.

وحق الحياة يتجلى في عدة معاني أبرزها:

* أن الحياة رحمة إلهية أفاضها الباري للمخلوقات ومن حق الجميع التمتع بهذه الرحمة دون أن يزاحمه أحد ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[١]. ويقول أيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[٢].

* إن القيمة الذاتية للحياة تنبع بما يسمى في الفقه الإسلامي «بحرمة الروح»، فليس للإنسان حق الحياة فقط بل حتى الحيوانات وذوات الروح ففي الحديث: (إن امرأة أبتليت بعذاب إلهي جراء هرة ربطتها فماتت من العطش)[٣].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٩.
(٣) وسائل الشيعة ج ١٩ ص ٦.

* إن حق الحياة يبدأ منذ ظهور النطفة وأن أي شخص لايعمل بواجبه تجاه حق الحياة حتى ولو كان صاحب النطفة (الأب والام) يعد مجرما وقاتلا، لذا جاءت فلسفة حرمة إسقاط الجنين وأن فاعلها عليه دفع الجزاء المالي وتحمل العقاب الالهي.

* وضع الفقه الإسلامي عنوان: (النفس المحترمة) للدلالة على حرمة الإخلال بحياة النفس والإضرار بحياة أي أحد، بل أن كل إنسان مكلف بحفظ النفس المحترمة من الضرر والقتل وأن يسعى بكل وسيلة ممكنة لحفظها وإذا أهمل إنسان هذا الواجب حتى ماتت نفس أو أصيبت بضرر أعتبر في الواقع قاتلًا أو شريكاً في القتل وعاملًا على تحقيق هذا الأضرار. فعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أن الرجل ليأتي يوم القيامة ومعه قدر محجمة من دم فيقول والله ما قتلت ولا شركت في دم فيقال: بل ذكرت عبدي فلاناً فترقى ذلك حتى قتل فأصابك دمه»[1]. ولعل حرمة إيواء القاتل أو إخفاءه تأتى ضمن هذا النسق فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله (ومن أحدث أو آوى محدِثاً فعليه لعنة الله. قيل يا رسول الله وما الحدث؟ قال القتل)[2]. بل إن الفقه الإسلامي يوجب العقاب والأثر العقابي لأي تصرف من شأنه الإضرار ولو بجزء ضئيل من الجسد حتى أن الوالد يحرم عليه ضرب ولده لحد الإحمرار في الجسد.

وأكثر من ذلك فإن الرضا بما يقضيه الدهر له خير من الإجبار على قتل

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٩ ص ٨.

(٢) وسائل الشيعة ج١٩ ص ١٥.

الآخرين، فقد روي (إنما جعلت التقية ليحقن بها الدماء فإذا بلغ الدم فلاتقية)[1].

وقد جاءت النصوص الإسلامية لتشرح مفهوم القصاص بشكل مسهب من أجل وقف نزيف الاعتداء على النفس البشرية ومن أجل حماية أرواح الناس ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ ويقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]

حتى أن الإسلام شرع الدية والكفارة في قتل الخطأ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[3].

لذا فإن النفس المحترمة إشارة إلى حرمة العرض والدماء والأموال (المسلم حرام كله دمه وماله وعرضه).

---

(١) وسائل الشيعة ج١٩ ص ٤٨٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٢.

* يعتبر الإسلام أن الاعتداء على نفس واحدة اعتداء على الإنسانية كلها كما أن إنقاذ نفس يعتبر بمثابة إنقاذ للإنسانية، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

* من أدلة عظمة الحياة وقيمتها حرمة الانتحار في الإسلام ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[2].

* لا يقتصر الإسلام على إعطاء حق الحياة للإنسان بل حق إدامة الحياة حتى في أضعف الحالات من حيث التمتع بالملكية الإرثية حتى وإن كان لا زال نطفة في بطن أمه.

* لا يتوقف حرمة الاعتداء على البدن فحسب بل حتى الاعتداء المعنوي حرام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ﴾[3].

* إن كل الأحكام والتكاليف الدينية إذا استوجبت ضرراً جسمياً أو نفسياً تسقط عن المكلف من هنا كان شرط القدرة أساسياً لتوجيه التكليف للإنسان[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٢٩ - ٣٠. (٣) سورة الحجرات، الآية: ١١.

(٤) (الجعفري، محمد تقي مقدمة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مقالات المؤتمر السادس للفكر الإسلامي طهران ١٤٠٨ هـ).

* يعتبر عدم الاهتمام بسفك الدماء والتسامح في معرفة وتقصي القاتل من المعاصي الكبيرة حتى كأنه شريك في سفك الدم فقد روي أنه أتى رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله قتيل في جهينة فقام رسول الله يمشي حتى انتهى إلى مسجدهم وتسامع الناس فأتوه فقال: من قتل ذا ؟ قالوا يا رسول الله ما ندري. فقال قتيل بين المسلمين لا يدري من قتله! والذي بعثني بالحق لو أن السماء والأرض اشتركوا في دم امرئ مسلم ورضوا به لأكبهم الله على مناخرهم في النار أو قال على وجوههم[1].

* لم يكتف الإسلام بحماية الإنسان في حال حياته بل أكد على احترامه وتقديره بعد مماته، من هنا جاء الأمر الإلهي بوجوب غسل الميت وتكفينه ودفنه ونهى عن الاعتداء على جسده.

من هنا فإن حق الحياة مرتبط برب العباد فهو خالق الحياة وهو معدمها بشكل مباشر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾[2]، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾[3]. لذا نستخلص عدة معاني:

١ - ليس للبشر حق التصرف في حياة الآخرين ايا كانوا مالم يتجاوزوا حدود حياتهم ليعتدوا على غيرهم، هنا يأتي التشريع الإسلامي ليضع ضوابط للتعامل في هذه الجزئية.

٢ - أن البشر كلهم متساوون في حق الحياة وليس لأحد الحق في اعتبار

---

(١) (وسائل الشيعة ج١٩ ص ٨-٩).

(٢) سورة الحج، الآية: ٦٦.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٣.

الحياة لنفسه وحسب، وأن الآخرين ممن لا يؤمنون بشريعته هم كائن بشري منبوذ لا يستحق أن يشم الهواء!!. أن ذلك يتطلب إضفاء الاحترام لجميع البشر واحترام حقهم في الحياة من دون استثناء. ولعلنا نذكر ماجرى عندما مرت جنازة أمام رسول الله فهب واقفا احتراما للميت وعندما اخبره أحد الصحابة بأن الميت يهودي فإن النبي ﷺ بادره قائلا أليست نفساً؟[1]

واذا كان الإسلام من التشريعات الربانية الأولى في إرساء حق الحياة فإن المواثيق الإنسانية الأخرى قد أشارت بشكل مسهب لذلك فقد أقر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في مادته السادسة هذا الحق بقوله: (يحق لكل إنسان التمتع بحق الحياة والحرية والأمن) فيما أشارت المادة السادسة من فصل الميثاق المدني والسياسي - وهو الجانب القانوني والتنفيذي للإعلان العالمي- إلى حق الحياة من ست نقاط أبرزها:

١ - حق الحياة هو من الحقوق الذاتية للإنسان نفسه وهذا الحق يجب أن يتمتع بالحماية في ظل القانون ولايمكن لاي أحد حرمان شخص آخر من هذا الحق دون مسوغ منطقي.

٢ - لا يجوز إصدار أحكام بالإعدام في الدول التي لم تلغ فيها أحكام الإعدام.

٣ - عندما يشكل سلب الحياة الهدف من المذابح الجماعية فلا يجوز للدول الموقعة على هذا الميثاق العمل خلافا لما ألزمتها به

---

(١) (هويدي، فهمي حقوق العائلة في الإسلام - مقالات المؤتمر السادس للفكر الإسلامي طهؤان ١٤٠٨ هـ).

قرارات معاهدة الحيلولة دون وقوع جريمة المذابح الجماعية ومعاقبة مرتكبيها.

٤ - يحق لكل محكوم بالإعدام أن يطلب العفو أو تخفيف الحكم ويمكن منح العفو العمومي أو الفردي أو تخفيف أحكام الإعدام الصادرة في جميع الحالات.

٥ - لايمكن إصدار أحكام بالإعدام على مرتكبي الجرائم التي تقل أعمارهم عن ١٨ عاماً كما لايمكن تنفيذ حكم الإعدام بالنساء والحوامل.

٦ - لايمكن الاستناد إلى نقاط هذه المادة لتأخير أو منع إلغاء أحكام الإعدام من جانب أي من الدول على هذا الميثاق.

وكما يبدو فإن هدف الإعلان العالمي فيه من الثغرات الجلية حيث نلحظ عناية شديدة بحماية المحكومين بالإعدام وأن كانوا مجرمين دون أن يهتم بتنظيم علاقات الناس داخل المجتمع أو للتعريف بحقوق الناس على الحكومة والسلطات مما جعل الهم الأول لواضعي المواد الحيلولة دون تنفيذ عقوبات الإعدام وليس الحيلولة دون قتل النفس..

٢ - حق الكرامة:

كما أن حق الحياة حق لا يقبل النقل والانتقال والسقوط كذا حق الكرامة الإنسانية، بمعنى امتلاك الإنسان للعزة والشرف والتوقير والحيثيات التقويمية الذاتية التي من شأنها أن تسبغ عليه حفظ وصون إنسانيته ومتطلباتها.

إن التكريم الرباني للإنسان سمة بارزة في تثبيت ميزات عالية للنوع الإنساني من قبيل الفكر والتعقل والوجدان والاستعداد الفطري للاتجاه للكمال والإحساس بالتضحية باللذائذ في سبيل القيم الإنسانية السامية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]. من هنا فإن الحرمة كل الحرمة أن يذل العبد نفسه.

إن التمتع بحق الكرامة والشرف الإنساني تعتمد بالدرجة الأولى على بني البشر والقدرة على تعاطي هذا الحق من دون الإخلال بحياة وكرامة الآخرين وحرياتهم مما قد تؤدي لدحرها وسحقها.

إن الهبة الإلهية بمنح الكرامة الإنسانية تجعل الناس سواسية كأسنان المشط ينالون الاحترام والشرف والرفعة ويحضون بحياة كريمة متى شاءوا أن يرتقوا نحو درجات الكرامة وسينحطون لو تسافلوا في ذاتهم الإنسانية.

وحق الكرامة هدفها إيقاظ وازع الإنسانية في التعامل مع سائر بني البشر من خلال إيقاظ جملة قيم رائدة من قبيل الشعور الأخوي بالتقابل والتماثل مع كافة بني البشر كيفما كانوا ومن أي مكان كانوا وتحقيق المساواة والتلاقح الوجداني وروح الدفاع عن شرف وكيان الآخرين والعمل الجاد للحفاظ على المكتسبات الإنسانية الرائدة مثل صون الحقوق البشرية والحريات العامة..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

٣- حق الحرية:

من الحقوق التي كفلها الله للإنسان هو حق الحرية وتتمثل في الاشراف المادي والمعنوي على الذات والسلطة الشخصية على ممارسة المسيرة الإنسانية. والإحساس بالحرية هو حصيلة لموضوعين مطلوبين للحياة الإنسانية:

* عدم القيد والغل في مسير تنفيذ الإرادة.
* الإحساس بالقدرة على اختيار الأهداف والوسائل من بين الأشياء المتوفرة في الواقع.

وتبقى الحياة ناقصة دون الإحساس بالتدثر بالحرية.. وحق الحرية في الإسلام هو:

١ - حرية العقيدة:

فالإنسان حر في اعتناق عقيدة ما دون قيد أو شرط، وحر في إظهار العقيدة التي يؤمن وحر في الدعوة للعقيدة ونشرها بين الآخرين أو التبشير بها، وقد أشار القرآن الكريم لهذه الحريات إذ يقول تعالى في محكم كتابه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[١]، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢]، بل إن هناك قول صريح بنفي الإكراه في العقائد وأن الإنسان حر في إظهار ما يؤمن به ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٩٩.

وفي مورد آخر يشير رب العباد إلى عدم جواز فرض الأيمان على الإنسان وأن واجب الرسول التذكير والتوضيح والابلاغ والإرشاد وتبقى الحرية مناطة للبشر كي يختاروا ما يشاؤون ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1].

إن تحقيق العدالة في النسيج الاجتماعي يتطلب تطبيق التعددية الدينية وتجنب حرمان الناس عن حقهم في الاختيار العقيدي مما قد تخلق هيمنة دينية وفرض شعائر وتنمو حالة الاستعداء الديني والمذهبي. وقد قيل أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال ذات مرة في مسجد المدينة «من أذى إنجيليا فقد آذاني» وهو القائل: «لو ثنيت لي الوسادة فجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم وفي أهل القرآن بقرآنهم حتى تركت كل كتاب ينطق من نفسه» وكذا في عهده إلى نصارى نجران إذ يقول: «لايضاموا ولا يظلموا ولاينقص حق من حقوقهم»[2].

إن حرية الاعتقاد هي اول حقوق الإنسان الذي يثبت بها وصف إنسان فالذي يسلب إنسانا حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته ابتداءا. والإسلام وهو ينادي بأن ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ برغم كونه من ارقى التصورات للوجود والحياة يمنع اتباعه من اكراه الناس عليه، والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق أي نفي الجنس كما يقول النحويون أي نفي جنس الاكراه كونه ابتداء، فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع، وليس مجرد نهي

(١) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ - ٢٢.

(٢) (جرداق، جورج - علي وحقوق الإنسان ص ٢٠٨).

عن مزاولته والنهي عن صورة النفي اعمق ايقاعا وآكد دلالة كما يشير إليه سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن)[1].

إن حرية العقيدة تؤكد على حقيقة رفض أي نوع من أنواع التعصب والتزمت والتشنج في التعامل مع أتباع العقائد الأخرى فليس من حق أحد أن يقف على بوابة الإسلام لكي يدخل من يشاء ويمنح صكوك الغفران لمن أحب اويطرد من يشاء وكأنه يملك وكالة التوحيد لله!! فالحقيقة ملكية عامة لكل الناس. يقول الإمام علي عليه السلام (أدنى ما يكون به الرجل كافرا أن يتدين بشيء فيزعم أن الله أمره به عما نهى عنه ثم ينصبه فيتبرأ ويتولى ويزعم أنه يعبد الله الذي أمره به)[2].

إن الإسلام حينما يلغي العصبيات الجاهلية إنما ينطلق من اعتبارها نبتا شيطانيا فاسدا ينخر بكرامة الامة حيث تبث الفتن وتقوض أسس التكامل والرقي الإنساني. يقول رسول الله صلى الله عليه وآله (من كان في قلبه حبة خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية) ويقول الإمام الصادق عليه السلام «من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربقة الأيمان من عنقه»[3].

إن التعصب جهل وسفاهة وانتهاك لكرامة النفس البشرية وهو تشويه لوجه الحياة يقول الإمام علي عليه السلام (لقد نظرت فما وجدت أحدا من العاملين يتعصب لشيء من الأشياء إلا من علة تحتمل تمويه الجهلاء أو

---

(١) (اليوسف، عبد الله، شرعية الاختلاف –منتدى الكلمة للدراسات والابحاث – دار الصفوة بيروت ١٩٩٦).

(٢) ميزان الحكمة ج ٨ ص ٤٠٣.

(٣) (الشيرازي، محمد مهدي – الصياغة الجديدة، مركز نشر الفكر الإسلامي الطبعة الأولى ص ٤٩١).

حجة تليط بقول السفهاء)[1].

يقول لانبول وهو مستشرق غربي (في الوقت الذي كان التعصب الديني بلغ مداه جاء الإسلام يهتف: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2]، وكانت هذه مفاجأة للمجتمع البشري الذي لم يكن يعرف حرية التدين وربما لم يعرفها حتى الان وسار محمد على هذا المنوال مسيرة لم تعرف التردد)[3].

٢ - حرية الفكر:

يقر الإسلام حرية الفكر المتمثلة في البحث والمناقشة واختيار المتبنيات المراد اختيارها دون أي تقييد أو حجر أو منع ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[4].

وتنبع حرية الفكر من التأكيد الدائم والحث على اكتساب العلم والمعرفة وهذا بالطبع يتيح المجال للتعرف على ثقافات متباينة وأفكار متعددة مما يستوجب وجود إطار فكري حر يختار ما يشاء من الأفكار ويؤمن بما يشتهي.

بل نهى الإسلام عن الجمود الفكري الذي يعبر عن أسر العقل في محجمة الماضي أو انماط التقليد والتبعية كقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[5].

---

(١) (جرداق، جورج - علي وحقوق الإنسان ص ٢١٢).
(٢) سورة الكافرون، الآية: ٦.
(٣) (الصفار، حسن -التعددية والحرية في الإسلام ص ٣١).
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

ودعا القرآن إلى التفكر واستخدام العقل في ما يزيد من خمسين آية بألفاظ مختلفة، وبالطبع فإن حرية التعبير والقول حق طبيعي للإنسان لاجدال عليه في فضاء الحريات العامة.

إن محاولة فرض مذهب أو دين أو عقيدة أو فكر على الاخرين بالقوة والجبر والاكراه والتهديد والوعيد منهي عنه، إذ ليس من حق أحد الادعاء بأن فهمه للإسلام هو الإسلام، ومادامت ابواب الاجتهاد مفتوحة فإن المسوغات التي تبيح للذات الاجتهاد، تبيح للاخر نفس الحق في الاستنتاج والفهم طبقاً لمعايير الاجتهاد.

يقول الاستاذ فهمي هويدي «ليس من حق أحد أن يقف أمام الملأ ويقول: أنا الإسلام!. ليس من حق أحد أن يتحصن بكتاب الله ثم يعلن علينا من ورائه أن من نصره وأيده فقد دخل زمرة المؤمنين الصالحين، ومن خذله أو فقد خرج على كتاب الله وصار من أعداء الإسلام المارقين. ليس من حق أحد أن يزعم بأنه يتمتع بحصانة إسلامية خصته بها السماء وأحاطته بسياج من العصمة والقداسة.

لكنهم في زماننا يقولون ذلك بغير تردد أو مواربة، يختلفون في أمور الدنيا، ويتبادلون الاتهامات هنا وهناك، ثم نفاجأ بمن يلقي قفاز الإسلام في وجه الجميع، فتنقلب موازين العراك وأسلحته، ويتحول الأمر من قبول أو رفض للاجتهاد السياسي، ليصبح ايمانا بالله أو كفرا به، ودعما للإسلام أو طعنا فيه والإسلام برئ مما يفترون!»[1].

---

(١) (اليوسف، عبد الله، شرعية الاختلاف -منتدى الكلمة للدراسات والابحاث - دار الصفوة بيروت ١٩٩٦).

ولعل من مصائب الزمان أن تتسيد موضة فتاوى الارتداد والتكفير لكل من أصبح مخالفا للرأي، فقد أضحى أحمد بن حنبل ضحية الرأي الآخر حيث قضى باقي سني عمره في غياهب السجن تحت التعذيب والسياط حتى قضى نحبه هناك، وتبعه الامام الغزالي صاحب كتاب (إحياء علوم الدين) حيث وصفه علماء عصره بأنه ملحد مرتد، وزعموا أن كتبه تخالف رأي علماء السلف، وأدانوها بانها ليست إسلامية فأمروا بحرقها ونهوا المسلمين عن قراءتها، وأمروا بقطع أعناق مريديه وأتباعه. وثمة دكاترة معاصرون ورواد فكر أصبحوا في خانة التكفير وجواز تطليق الزوجة منه وما أشبه من تهم!!.

والأدهى من ذلك أن مسيرة التكفير أحدثت فجوة كبيرة في استيعاب معنى حرية الفكر بل وكرست مفهوم أن الإسلام يشهر سيوف الإسقاط على رقاب المسلمين ويسلب حقهم في الاختيار، حيث أضحت مناهج السابقين وارائهم جزءا لايتجزأ من الشريعة وبالتالي استمرت عقلية الإلغاء والتكفير وكأنها مبادئ وحتميات لامجال لنقاشها!!.

٣ - حرية الرأي:

إن امتلاك الإنسان حرية العقيدة وحرية الفكر يتطلب بطبيعة الحال أثارة ونشر ماتوصل إليه وآمن به من منطلق حقه في أختيار الرأي والعقل والموقف الذي يترتب على هذا الرأي.

وقد أكدت سيرة الرسل دائماً على حرية الرأي من خلال قرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان وإثارة عقول الناس قبل عواطفهم فها هو نوح بعد

أن لبث في قومه الف سنة إلا خمسين عاما يقول له قومه ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[1]، وها هو هود يقول لقومه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾[2]، للدلالة على حق الإنسان في التفكير وإبداء الرأي والحوار والنقاش[3].

ويأتي القرآن الكريم ليكرس هذا المبدأ فيقول الباري: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]، ثم يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[5].

بل إن القرآن يقرر الحقيقة الأزلية بنص ثابت محكم ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[6] ليؤكد على أحقية الناس وحريتهم في اختيار ما يشاءون.

ولعل التشريع الإسلامي أعتبر الجهر بالرأي واجبا وليس مجرد حق أو معأرضة أو رخصة مشروعة بل وضعها في قالب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ولعل مقولة رسول الله ﷺ تؤكد ذلك بقوله: (إن أعظم الجهاد

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧١.

(٣) (العوا، د. محمد سليم -الحرية في أصولها الإسلامية، مقالات المؤتمر السادس للفكر الإسلامي طهران ١٤٠٨ هـ).

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٥) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٦) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

كلمة عدل عند سلطان جائر)[1].

وصدق فولتير إذ يقول: (أنا أخالف ما تقول ولكني مستعد بالتضحية في سبيل أن تقول كلمتك بحرية).

بين الحق والمسؤولية

أمام هذه الحقوق الثلاثة (حق الحياة - حق الكرامة - حق الحرية) كرس التشريع الإسلامي مسيرة الحقوق بربطها بممارسة المسؤولية، إذ لا يمكن أن نتصوّر نظام حقوق دون وجود نظام الواجبات والمسؤوليات.

إن النظرية الإسلامية تعطي الفرد والمجتمع كفالة حقوقه المشروعة فتثبت وتؤسس مبدأ الحق في التشريع الإسلامي إضافة إلى أن أحكامها وإجراءاتها القانونية لا تخرج عن إطار العدل. فالنظرية لا تكتفي بمدنا بقيم وأصول حقوق الإنسان بل تمدّنا بأصول ومعايير ومقاييس تدرأ كل أسباب وعوامل انتهاك حقوق الإنسان أو تجاوز حقوقه ومصالحه المشروعة، من هنا فإن الإنسان وهو يمارس حقه (كسباً وانتفاعاً) ينبغي أن يلاحظ حقوق الغير وإيجاد التوازن بين المصالح الخاصة والعامة، لذا جاءت الاستنباطات الفقهية درء المفاسد واختيار أهون الضررين وما يسمى بعلم الأصول «التعادل والتراجيح»[2].

ويستند التشريع الإسلامي على حقيقة أن الإنسان الفرد ليس كياناً مستقلًا منعزلًا عن المجموع، وإنما هو وحقوقه في إطار وحدة إنسانية

---

(١) (الترمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري حديث رقم ٢٢٦٥).

(٢) (قاسم، محمد/ ملامح حقوق الإنسان في التشريع الإسلامي مجلة البصائر عدد ٩).

تعيش بشكل مشترك. فحقوق أطراف الوحدة الإنسانية متبادلة ومتداخلة، لذا حارب الإسلام العوامل الدافعة والمؤسسة لتجاوز حقوق الغير والاستحواذ عليها فكان دحر ونبذ العصبيات والنزعات الفردية التي تفضي إلى الأنانية والجشع والنزعات العنصرية، فأرسى مبدأ العدل والمساواة والوفاء بالعهود والمواثيق.

الحقوق الثلاثة وحتمية اللاعنف

ينشأ فكر وفعل العنف من الاعتقاد الأوحد برجحان المنطق والفكر المتبنى وبطلان أي منطق وفكر الغير فتتحول الأفكار إلى بديهيات لا تقبل النقاش ويتحول الآخر المختلف إلى كافر فاسق ضال. هذا الاستملاك القسري للحقيقة المطلقة يفضي إلى محاولة الهيمنة على فكر الآخرين وعقولهم وحياتهم ويبيح التصرف بحقوقهم وإقصاء فكرهم وتصوراتهم.

كما يتولد العنف من الاعتقاد المفرط بأن الآخرين ينتهكون حقوقه المشروعة مصحوبة بأوهام وتخيلات مهولة تحول رد الفعل إلى اندفاعة متشنجة مفرطة.. فعندما تتعرض حقوقه الطبيعية المباحة إلى انتهاك واستلاب يتنامى شعور بالانتقام وتنمو عقلية رد بالمثل التي ستكون بطبيعة الحال ميالة لسلب حقوق الآخرين سعياً ليكون الأذى موجعاً مؤلماً للطرف المقابل.

ويبدو من الصور الماثلة أمامنا أن العنف ينهض على ثمة أسس مهترءة، منشأها الفكري ينبري عادة طبقاً لظروف وقتية زمانية طارئة حتمت إطلالته في غفلة من الوعي والتعقّل والفكر المتوازن الرصين.

في الوقت نفسه يبدو أن أغلب التراتيب الفكرية المتطرفة تنثوي تحت عباءة فكر مشوش يعلوها التناقض والخلط في المفاهيم والمصطلحات الفلسفية، وأي تناقض في التصوّرات المعرفية ستكون حتماً ناتجة عن اضطراب معرفي ونقل مفاهيم واقتباس تصورات من مضامين ثقافية ذات بنى أقرب للتلفيق والخواء، وهذا ما يفسر كيف أن العنف بشتى أشكاله أصبح تحت مسمى الجهاد والنضال ومقارعة الكفر دون أن يكون ضمن محور بحث جذري لتلك المفاهيم والمضامين الناهضة في الفكر الإسلامي.

وإذا كانت الحقوق الثلاثة آنفة الذكر (حق الحياة وحق الحرية وحق الكرامة) ملك الخالق الذي أفاضها على البشر وليس من أحد الحق التصرف بها وإسقاطها أو نقلها، فإن مسؤولية الكائن البشري تقوم على احترام وصيانة حقوق الآخرين وممارسة دور الإصلاح والتنمية والنصح والإرشاد والتقويم، دون أن يناط له حق تقويض الكيان البشري وعناصره الأولية.

بين الأصول والاستثناءات

يعتمد الفكر الإسلامي على ركيزة الاعتدال والتسامح والسلم كمنبع الأشياء وأصلها والتطرف ما هو إلا استثناء خارق للعادة العريضة العامة وهي مجرّد ظاهرة عابرة عارضة قصيرة الباع وقصيرة الحبال مآلها المحتوم أن تزول بزوال أسبابها الموضوعية وبتبدل أحوال البيئة التي ساعدت على نشوئها.

بل إن الآيات الكريمة التي تتحدث عن القتل والجهاد والعنف هي ضمن إطار تاريخي استثنائي محدد يجب تركيز المجهر عليها بدراستها

وتحديد آلياتها والظروف الموضوعية لها وبالتالي لا يمكن اعتبارها ظاهرة متأصلة في الفكر الإسلامي تسود على كل العموميات وتفرض شأنها في كل صغيرة وكبيرة. ولو استقرأنا المنهج الإسلامي من منابعه الصافية (القرآن الكريم) سنجد الوداعة والسماحة والاعتدال والطرح العقلاني الموضوعي المسالم..

١ - ففي مجال الدعوة للدين نجد الآيات تترى باعتماد منهجية الموعظة الحسنة كأروع السبل وأفضلها مقاماً:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[١].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[٢].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[٣].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٤].

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾[٥].

ومن القواعد النبوية (بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا) وفي

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٤) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

حديث آخر (من قال هلك الناس فهو أهلكهم).

مما يشير إلى أن الداعية لا يحق له أن يصبح قاضياً يصدر أحكاماً بل هو مجرّد طبيب معالج ومرشد.

٢ - وفي مجال العقيدة يوصي الإسلام بالتسامح والعفو:

﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾(١).

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾(٢).

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾(٣).

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(٥).

٣ - ولم يكتف القرآن بذلك بل دعمه في مجال الأخلاقيات الإسلامية إذ يقول الباري عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾(٦).

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٦.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٤) سورة الممتحنة، الآية: ٧.
(٥) سورة الممتحنة، الآية: ٨.
(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[1].

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[2].

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3].

ويقول الإمام علي عليه السلام لعامله: (إيّاك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج فإنّا أُمِرْنا أن نأخذ منهم العفو).

ولا بأس بالإشارة إلى إقرار الإسلام الترهيب في حال اللجوء للحرب والقتال ورد العدوان أتت ضمن ظروف تاريخية محددة بل إن كل غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله كانت دفاعية حيث لم يكن من خيار غير الحرب.

سيرة الأنبياء

امتازت سيرة الأنبياء باستنهاض أسلوب البناء وتحقيق قدر كبير من التنمية والعمل على تهيئة المجتمعات لقبول الدعوة وإصلاح ذات بينهم بأسلوب هادئ رزين، فهذا نبي الله عيسى عليه السلام قد قال في الإنجيل (باركوا لاعنيكم)[4].

أما نبي الله نوح فيقول تعالى بشأنه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[5]

وتشير الآية إلى استخدام أسلوب التذكير بآيات الله دون الحاجة للجوء

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.
(٤) لوقا إصحاح ٦ رقم ٢٩.
(٥) سورة يونس، الآية: ٧١.

لعمل انقلابي أو عدواني، فقد عزم النبي نوح على الصبر إلى أن يقتل تأكيداً على دعوته السلمية.

أما نبي الله هود فتأتي سيرته الدعوية ملخصة بالآية: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾[1].

إن خطابه الهادئ وسلوكه الناصح أملّا في اهتداء قومه دون استخدام قوة الإرغام ينبئ عن شفافية النبي ورسالته.

وفي دعوة موسى عليه السلام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[2].

فبرغم تحدي فرعون وتهديده بممارسة العنف إلا أن موسى ظلّ بتوازنه وخطابه الرزين الهادئ يصك الأسماع ويحدث صدى مدوياً في تجسيد اللاعنف.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات من: ٦٥ - ٦٨.

(٢) سورة غافر، الآيات من: ٢٣ - ٢٧.

الفصل الثاني:

الإسلام والسيف!!

أولاً: هل انتشر الإسلام بالسيف ؟

جبل الكثيرون على اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف مستعيناً بوسائل العنف والإرهاب، مستندين على ثمة روايات وإحداث تاريخية وبعض الآيات القرآنية الداعية للجهاد.

إن قرائتنا للآيات القرآنية الآمرة بالجهاد واسباب نزولها لم تأمر المسلمين بالاعتداء قط وانما الدفاع عن الشريعة السمحاء فقط، اما ما حدث من تسلط واستيلاء على أموال الناس وأعراضهم لايمكن اعتباره في خانة الجهاد والدين.

وما يؤكد أن الحرب حالة استثنائية اضطرارية أن آثارها كانت قليلة إذ يذكر أحد الكتاب أن جميع القتلى من الطرفين (المسلمين والمشركين) لم يتجاوز الفا وبضعة أشخاص في كل الحروب التي خاضها الرسول ﷺ والتي كانت أكثر من ثمانين حربا.

بينما يذكر الدكتور محمد حميد الله في كتابه (محمد) أن محمدا ﷺ مع أنه استولى على أكثر من مليون ميل مربع مما يعادل كل أوربا باستثناء روسيا ومع أنه كان يسكن هذه المنطقة ملايين من البشر لم يقتل في كل

حروبه (من طرف المسلمين) إلا مائة وخمسون مسلما، أن هذا العدد يعادل قتيلا واحدا في كل شهر - تقريباً -[1] .

بل إن التاريخ أثبت أن القبائل العربية دخلت الإسلام في زمن السلم أضعاف دخولها في زمن الحرب وما انضمام الاوس والخزرج بأكملها للإسلام دون حرب إلا دليل قاطع على قناعة الإسلام وقدرته على مخاطبة العقول.

الإسلام والحرب

أن العقد الاجتماعي الذي يربط البشر بعضهم ببعض من قبيل عقد حبال المودة والألفة والتآخي كشعوب وقبائل والتلاقح وتبادل المنفعة شكلت أسس النمو البشري وأعطت طعما فريدا للحياة، وتلاقحت مع هذا العقد الاجتماعي الحقوق المباحة للبشر للتمتع بالحياة والاستجابة لمتطلبات التعايش بين بني البشر، هذا العقد الاجتماعي لا يتناسب تماماً مع ظاهرة الحرب التي تمحق الإنسان وكل مامن اجله كائن.

إن كل نشاط يدعي خدمة الإنسان وتسيير الحياة ثم يدفع الأحياء للموت تحت شظايا النار لهو عمل يستقبحه العقل والمنطق ولايتناسب مع طبيعة تكوين الحياة الإنسانية، إنها ظاهرة مرضية وأن اعتبرها البعض إنها سنة من سنن الاجتماع البشري ومظهر من مظاهر تنازع البقاء الذي أشار إليها تعالى بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[2] لكن ذلك لايعني أن تنحدر الحياة إلى مستوى

---

(١) (المويس، عبد الله محمد - الحرية الفكرية في الإسلام مجلة البصائر العدد ٥١).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

تتدافع لحد الاقتتال والتنازع اللاعقلاني، لأن قبح الحرب أن أضرارها فادحة بالحياة والنوع البشري وظاهرة اجتماعية تمليها الغرائز الفاسدة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[1].

من هنا حرص الإسلام أشد الحرص على عدم نشوء ظاهرة الحرب إلا ضمن أطر ضيقة وظروف شاذة تقتصر على الدفاع عن النفس وحماية حقوق الآخرين وكراماتهم ومقدراتهم وأعراضهم وشرفهم وعندما تصبح العدالة والحرية معرضة للاغتيال. وحتى اللجوء للحرب الدفاعية تأتي بعد خيارات عدة:

١ - الحياد من خلال عقد العهود والمعاهدات كما فعل رسول الله ﷺ مع الحبشة وكفار قريش في صلح الحديبية من أجل وقف إراقة الدم ونزيف الاعتداءات المتكررة.

٢ - قناعة الطرف الآخر القلبية والعقلية بالإسلام دون قسر مما يوجب حقن ماله ودمه وعرضه وذلك في حال سيادة دولة الإسلام فقط.

٣ - إذا لم يكن حيادا ولا عهدا ولا إسلاما فيأتي دور الجزية كما فعل ﷺ مع نصارى نجران والجزية مجرد حق مالي كما على المسلمين من حق الزكاة والخمس نظير الدفاع عن حقوقهم في الدولة الإسلامية.

وقد اثبت التاريخ أن كل حروب رسول الله ﷺ دفاعية محضة ضمن ظروف تاريخية لا يسعنا ذكرها[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٢) (لمزيد من الإطلاع راجع كتاب الصياغة الجديدة لاية الله الشيرازي ص ٣٥١).

استثناءات اللجوء للحرب

في الوقت نفسه فإن ثمة استثناءات وحالات قصوى تبيح خوض الحرب في الإسلام نذكر منها:

١ - الدفاع عن حق الإيمان والمعتقد، فحينما تصبح حرية المعتقد والدين جريمة لاتغتفر، يجب الدفاع عنها ودفع الظلم عن حق الحرية الدينية ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[1] (حرية العقيدة الدينية) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

٢ - دحر العدوان، فرد الظلم دحر للظلم بمعنى أن مقاتلة المعتدي ماهو الادفاع عن اللاعنف وقطع دابر المستبد الظالم بشرط أن لايتمادى الرد ويتجاوز الحد المعقول ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[3]

٣ - انتشار الفتنة واشاعة الكراهية والاحقاد في النفوس وبث الفرقة والتشجيع على العدوان وحث الاعداء على الاعتداء على الدولة والعمل على مساعدتهم بما يطلق عليه اليوم بـ (الخيانة). ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٩ - ٤٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

ذلك أن الفتنة قد تشكل تحديا اكبر من سفك الدماء والقتل مما يحتم دحرها لصالح سيادة السلام والطمأنينة في المجتمع ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[1]، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[2].

٤ - الدفاع عن معاهدات السلام وخاصة معاهدات الدفاع المشترك مع الاصدقاء، فإن تعرضت المعاهدات والاتفاقات للانتهاك فإنه يصبح من اللازم العمل على صونها وأن تطلب شن الحرب، فقد أعتدت قريش على قبيلة كانت مع المسلمين في معاهدة دفاع مشترك حتى نزلت الآية: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾[3]

والأمر يمتد لمن يستنجد بالمسلمين من معتدي وإن لم يكن متعاقدان ضمن معاهدة أو اتفاقية لأن الامتناع عن مد يد العون كمن يشارك في قتله ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾[4].

وكما نلحظ فإن كل حالات شن الحرب الاستثنائية ما هي إلا دفاع عن خصيصة السلام واللاعنف والحرية بكافة أشكالها ودحر أي نمو لظاهرة العدوان والظلم والتجني على حقوق وحريات الاخرين، فالعدالة احيانا لا تستتب إلا بدحر أعداء العدالة ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.
(٥) سورة الحجرات، الآية: ٩.

ضوابط الحرب

واذا نشبت الحرب فإن هناك مئات الضوابط التي لا تجيز الإسراف والاعتداء والتجني في القتل واباحة الدم، باعتبار أن الحرب ضرورة قصوى والضرورات تقدر بقدرها وهذه الضوابط عديدة نذكر منها:

١- لاتبدأ بقتال:

يقول الإمام علي عليه السلام لعسكره قبل لقاء عدوه في صفين (لا تقاتلوهم حتى يبدؤكم فانكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدؤكم حجة أخرى لكم عليهم) ويقول أيضاً لولده الحسن (لا تدعونّ إلى مبارزة).

٢- الاقتصار على القدر الضروري:

حيث يحرم الغل والتمثيل والغدر، فقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله عندما أراد أن يبعث سرية حيث أجلسهم بين يديه وقال: (سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله لاتغلوا ولاتمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخا ولاصبيا ولا امرأة ولا تقطعوا شجرا إلا أن تضطروا إليها وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله فاتبعكم فاخوكم في الدين وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله).

ويخطب صلى الله عليه وآله في سرية أخرى فيقول (لا تغدروا ولا تغلوا ولاتمثلوا ولا تقتلوا وليدا ولا متبتلا في شاهق ولاتحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولاتحرقوا زرعا لانكم لاتدرون لعلكم تحتاجون إليه ولاتعقروا البهائم ما يؤكل لحمه إلا ما لابد لكم من أكله).

وقد نهى رسول الله أن يلقى السم في بلاد المشركين كما يحرم سلب العدو لامة حربه أو ملبسه.

وروى الكليني في الكافي والطوسي في التهذيب بسندهما عن الامام علي بن الحسين عليه السلام قال: «أن علياً عليه السلام كتب إلى مالك الاشتر وهو على مقدمته في يوم البصرة بأن (لايطعن في غير مقبل، ولا يقتل مدبراً، ولايجهز على جريح ومن أغلق بابه فهو آمن)[1].

وكان يحرص الإمام علي عليه السلام على إرسال رجال رحماء يرأفون بالناس في غزواتهم فقد روي أنه أوصى عامله على مصر بقوله (وولّ من جنودك أنقاهم جيبا - أي أطهرهم قلباً - وأفضلهم حلما ممن يبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء وممن لايثيره العنف... الخ)[2].

٣- لاحرب مع إعطاء الامان أو الصلح:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال :(لو أن قوماً حاصروا مدينة فسألوهم الامان فقالوا لا فظنوا أنهم قالوا نعم فنزلوا إليهم كانوا آمنين). وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (من أئتمن رجلا على دمه ثم خان به فأنا من القاتل برئ وأن كان المقتول في النار).

وليس هذا فقط بل إن الإيماءة الصادرة من رجال الخصم يعتبرها الإسلام اعطاءا للامان يقول الإمام علي عليه السلام (إذا أومأ أحد من المسلمين إلى أحد من أهل الحرب فهو أمان) وفي عهد لرسول الله إلى

---

(١) (وسائل الشيعة ١١: ٥٥ وفروع الكافي ١: ٢٢٦، والتهذيب ٢: ٥١).

(٢) (جرداق، جورج - علي وحقوق الإنسان ص ٢٢٤)..

علي عليه السلام قال (وأياك والغدر بعهد الله والأضفار لذمته فإن الله جعل عهده وذمته أمانا أمضاه بين العباد برحمته والصبر على ضيق ترجو انفراجه خير من غدر تخاف تبعاته وسوء عاقبته)[1].

ويقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لعامله على مصر (وان عقد بينك وبين عدوك عقدة -أي ميثاقا- أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وأرع ذمتك بالأمانة وأجعل نفسك دون ما أعطيت - أي حافظ على ما أعطيت من عهدك بروحك - ولا تغدرن بذمتك ولاتخيسنّ بعهدك ولاتختلن عدوك -لا تخدعه-)[2].

٤ - وقف إطلاق النار في الأشهر الحرم وعدم استحلال دماء الآخرين فيها

يقول تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ سورة التوبة، الآية: ٣٦.

٥- حرمة قتل الأسير:

عن أبي عبد الله بن ميمون قال: أتى علي عليه السلام بأسير يوم صفين فبايعه فقال علي عليه السلام (لا أقتلك اني اخاف الله رب العالمين) فخلى سبيله واعطاه سلبه الذي جاء به.

٦- حرمة قتل المكره:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر (اللَّهُمَّ من استطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فلا تقتلوهم فأنهم إنما أخرجوا كرها)[3].

---

(١) (الشيرازي، محمد مهدي - الصياغة الجديدة).

(٢) (جرداق، جورج علي وحقوق الإنسان ص ٢٢٦).

(٣) (الشيرازي، محمد مهدي - الصياغة الجديدة ص ٣٨٠).

٧- عدم التعرض للنساء:

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (لاتمثلوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ولا تدخلوا دارا ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فانهن ناقصات القوى والأنفس والعقول وقد كنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة فيعير بها وعقبه من بعده).

٨- تحريم القتال على غير سنة:

عن زيد بن علي عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله (إذا التقى المسلمان بسيفهما على غير سنة فالقاتل والمقتول في النار. قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال: لأنه أراد قتالا).

وفي عهد لرسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام قال (وإياك والتسرع إلى سفك الدماء لغير حلها فإنه ليس شيء اعظم من ذلك تبعة).

٩- عدم قتل الذمي:

روى جعفر بن أحمد القمي عن المطلب أن النبي صلى الله عليه وآله قال (من قتل رجلا من أهل الذمة حرم الله عليه الجنة التي توجد ريحها مسيرة اثني عشر عاما).

١٠- عدم قتل الأطفال:

فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله صادق على حكم سعد حيث أمر أن لا يقتل من لم يبلغ الحلم من رجال اليهود.

إن رسول الإنسانية انتزع السيادة والسلطة في أقسى بيئة من غير استخدام القوة، بل استمرأ الرسول في الدفاع عن حرية الاختيار بين بني البشر لكن الفتنة التي اشار إليها القرآن نقضت مبدأ حرية الاختيار لانها لم تكن سوى وسيلة قهر لتعذيب الناس حتى يتركوا دينهم، فالجهاد ماهو إلا منع اكراه الناس على دين معين ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[1].

ولتحقيق الجهاد بالقتال شرطان:

شرط في المجاهد أن يكون قد وصل إلى الحكم برضا الناس واقناعهم.

وشرط في المجاهد ضده (بفتح الهاء) أن يكره الناس على دين معين أو يفتنهم عن دينهم[2].

يقول ابن تيمية: (إذا كان الكتاب فوق السيف فهو الإسلام وإذا صار السيف فوق الكتاب فهو المنكر)

ويقول ايضا (القتال في الإسلام ليس لاجل الكفر بل لأجل الظلم) لأن الكفر يبقى وله حق أن يبقى والظلم اكبر مايكون في مصادرة الرأي وممارسة الاكراه في الدين ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[3].

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٨.

(٢) (سعيد، جودت - مذهب ابن ادم الاول الطبع الخامسة ص ٤٣).

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٥.

١١- عدم قطع الماء والأشجار:

فقد روي أن رسول الله نهى قطع الشجر المثمر أو إحراقها كما ورد أنه لما أراد غزو خيبر دله بعض اليهود على ماء كان يجري لهم وقالوا له: إن قطعت الماء عنهم استسلموا فقال ﷺ: لا أفعل ذلك فلم يقطع الماء عنهم كما أن عليا لم يقطع الماء عن أصحاب معاوية.

في الوقت نفسه نجد أن الإسلام يشترط إذن الوالدين لولده حين خروجه للحرب كما يسقط الجهاد عن المرأة والقاعدين من المؤمنين الذين لا يطيقون الحرب من أجل ضمان عدم استثارة الشحناء والبغضاء والضغينة نتيجة لتأثيرات عاطفية سلبية قد تنشأ جراء هذا السلوك المؤثر على النفس.

الجهاد والعنف

إن أشكالية انتشار الإسلام بالسيف احدثت خلطا جوهريا في مفهوم الجهاد حينما ربطت قهريا بمفهوم العنف وممارسة كافة اساليب القوة. فالجهاد هو استخدام القوة بعد الوصول إلى الحكم برضا الناس لمنع الاكراه في الدين أن لم يكن منعه من ذلك بغير قتال. فقد التزم الرسول ﷺ في سيرته بالدعوة إلى الحكمة والموعظة الحسنة حتى وصل إلى الحكم برضا الناس وقناعاتهم (قوة الاقناع والفكر) واستقبله أهل المدينة حيث بدأ هناك الجهاد وقتال من يفتن الناس عن دينهم ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

ثم إن الجهاد له ابعاد متشعبة فهو جهاد النفس وجهاد المال وجهاد الكد على العيال بينما العنف استخدام القوة فقط، في حين أن الجهاد مصطلح قرآني يقصد به الدفاع وحماية العقيدة والدولة ولا علاقة له بالعنف جملة وتفصيلا.

أصالة السلام

إن الحرب حالة استثنائية طارئة تحتمها الظروف والمتغيرات الواقعة والتبدلات السياسية ضمن أطر تقتضيها المصلحة والحاجة الملحة التي لافكاك ولامهرب منها، وإلا فالسلم حكم اولي واصل ثابت في الإسلام إذ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[1]، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[2].

إن الامن والامان وسيادة الاستقرار الاجتماعي سلسبيل الحياة ومادة الاستقرار والتكامل والنمو وأن سيادة السلام ضرورة ملحة لتكريس حضارة متنامية تتصاعد وتزدهر مع مرور الزمن. يقول الإمام علي عليه السلام (أن الله خلقكم حرما في أرضه وامنا بين خلقه وجمع الفتكم فنشرت النعمة عليكم جناح كرامتها وأسالت لكم جداول نعيمها).

فالحرب مجمع الرذائل ومكمن الدمار وإذا أقبلت شبهت حيث يتيه الحق بالباطل وتهدر القيم وتنسال المفاهيم في لهوات التشابك فتلتبس المعاني وتختلط كل القيم والسبيل الوحيد هو العمل على إقصاء الحرب عن الحياة لتعود للقيم جذوتها وتبقى للحياة معناها وأصالتها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

ثانياً: التاريخ الإسلامي.. شواهد دموية!!

لم يخلُ التاريخ الإسلامي من شواهد دموية حتى في العصر الذهبي للإسلام ففي عهد رسول الله ﷺ ذكر التاريخ أن سعد بن معاذ حكم في بني قريظة وأمر بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم وأمر بكشفهم فمن أنبت فهو من المقاتلين ومن لم ينبت فهو من الذراري وقد صوبه رسول الله ﷺ. فكيف يصوب رسول الله وسيلة من وسائل العنف ؟!.

كما أن رسول الله ﷺ أمر بأغتيال كعب بن الاشرف الذي كان يهوديا!! مما يعني أن هذا السلوك يؤيد مشروعية الاغتيالات السياسية للمناوئين ولو كانت بالقتل والعنف ؟؟!.

لايخالنا أدنى شك أن الدقة في قراءة السير والإحداث التاريخية يجنبنا الكثير من المتاعب والمشاكل التي ربما قد تزدحم لتشكل توليفة فكرية ثقافية حافلة بالأخطاء أن لم نتفحص التاريخ ونسيره بالتوازي مع القرآن الكريم المنبع الأساس في الحكم الإسلامي. فقصة بني قريظة مثلًا مختلقة تماماً وما يدل على ذلك اختلاف الروايات وعدد المقتولين بين سبعمائة وستمائة واربعمائة وهكذا اربعين، واختلاف الروايات بهذه الشدة من شواهد الاختلاق. ثم اين قبور هؤلاء وهل من المعقول أن جماعة كثيرة من البشر يقتلون ويدفنون ولاقبور لهم ولا أسامي ولا سائر مايرتبط بهذه الامور مع تسجيل خصوصيات الرسول ﷺ سواءا في طرف المسلمين أو في طرف الكفار، هذا كله مضافا إلى أنه لاسند معتبر لهذه الرويات.

بالنسبة لحادثة اغتيال كعب بن الاشرف فإن الاحاديث الدالة على أمر

الرسول ﷺ بالاغتيال كلها من صنع اليهود ولاسند لها كما يظهر لمن يراجع التاريخ[1].

أما بالنسبة إلى مجتمع صدر الإسلام وما حدث من أحداث مفجعة ودموية وقتال وفتن فإنه لا بد أن لا نفسر الأحداث بمعزل عن التحول الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع وخصوصاً في الأمصار الإسلامية الكبرى مثل الكوفة والبصرة، «وما أفرزه ذلك التحول من فئات اجتماعية مهمشة ومن تلك الفئات الموالي والزط والسبابجة والأحابيش وغيرها من الفئات، وقد أصبحت هذه الفئات بسرعة - نتيجة التطور الديموغرافي والعمراني السريع الذي عرفته المدن الإسلامية بصفة خاصة - تمثل التربة الخصبة للحركات الدينية السياسية التي قامت بانتفاضات متعددة ومتكررة بلغت شاوا بعيدا في استعمال العنف، وسفك الدماء.

ثم أن جميع حركات الفئات الاجتماعية المهمشة، وحركات الدعوات الدينية التي عرفها التاريخ العربي الإسلامي في العصر الوسيط اصطبغت بالصبغة الدينية، وهو أمر طبيعي بالنسبة لتلك العصور، ولكن هذه الصبغة الدينية لاتنفي أبدا المحتوى الاجتماعي لكثير من تلك الحركات»[2].

إلا أنه بالعودة إلى التاريخ الشيعي نجد أن الثورات الشيعية التي ثارت في عهد الائمة عليهم السلام كانت على يد أبناء الأئمة وبتأييد كامل منهم وقد

---

(١) (الشيرازي، محمد مهدي اجابة لاستفسارات رفعها المؤلف لفضيلته).

(٢) (الجنحاني، د. الحبيب - العنف والسياسة في الوطن العربي - منتدى الفكر العربي عمان ١٩٨٧).

خصصت كتابات واسعة في تحليل ظاهرة الثورات كقراءات قهرية لمفهوم الثورية.

وبطبيعة الحال فإن بعضها كانت حركات مارست العنف والإرهاب والقسوة كما في ثورة المختار الثقفي الذي قتل وعذب من ساهم في قتل الحسين عليه السلام وبعضها كانت بشعة وصوبها الامام زين العابدين عليه السلام حيث سجد شكرا لله حينما سمع بماقام به المختار ؟!.

للإجابة على هذه الشبهة نقول أن التاريخ اجتهادات رجالها وأبطال الحدث وهو ليس قرآناً ولا بد من الاعتراف بأن بعضه تجني وبعضه سقوط في الخطأ وهو أمر طبيعي إذا جردنا التاريخ من نفحة القدسية. من هنا فنحن مأمورون باتباع كتاب الله العزيز وسيرة نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته واخذ الدين منهم، وليس لنا أن نأخذ بكليات السير لافعال مارسها غيرهم، هذا **أولاً**..

وثانياً: فإن التاريخ يشهد أن الائمة لم يمارسوا العنف إطلاقا لعدم مشروعيته وتأييد إمام ما لحركة لايعني تأييد العنف بل تأييد أهدافها ومنطلقاتها، حتى أن رواية سجود الامام السجاد عليه السلام شكرا لسماعه بفعل المختار يردها بعض المؤرخين لما فيها من تناقض وتردد.

ثالثاً: أن تفسيرات التاريخ ماهي إلا قراءات للتاريخ وقد لاتكون صحيحة بالحتم.

رابعاً: من غير المعقول أن نرتمي للتاريخ ويرتسم أمامنا قرآن كريم يصدح بقول السلم دائماً وأبداً وأينما تعارض فعلينا أن نرتمي للقرآن ونضرب بغيره عرض الحائط.

ثالثا: نصوص الدم القرآنية!!

لكن نصوص القرآن واضحة وصريحة بشأن القتل واباحة الدماء منها:

* ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[1].
* ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾[2].
* ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾[3].
* ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[4].

في البدء لابد أن نستوضح عدة امور حول مفاهيم القرآن وتعاليمه ولغة الخطاب المتبعة فيه.

كتاب الله العزيز يتميز بقدرته الحلزونية على طرح المفاهيم والتعبير عنها بوضوح وكفاية علمية قد تتيه على المشوش معانيها، ففيه الاحكام والثوابت وفيه المتغيرات والمنسوخات، كما فيه السنن والرؤى المتجددة، فيما يضم بين دفتيه الاصول والعموم أو المستثنيات. وفي هذه الآيات يصفها المفسرون انها من آيات العموم بمعنى انها مرتبطة بجو الحدث وظرف الزمان حيث كان غبار المعارك مشتدا على اوجه

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

بين المسلمين والمشركين فكانت نداءات اشعال فتيل الحماس مطلوبة، لكن اصول التعامل مع الآخر المختلف ارساها القرآن ضمن قاعدة الاصول والسنن العامة التي لاتتغير ومنها:

* ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1].
* ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2].
* ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[3].
* ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾[4].
* ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[5].
* ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾[6].

يتضح لنا من هذه السلسلة من الآيات المباركة أن جوهر الإسلام في موقفه من المخالفين له المسالمة والحماية وطلب النصح له والرشد وأن لا إكراه في أي أمر من امور الحياة حتى ولو تعلق بالشك في خالق الكون وهو رب العالمين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠. وسورة المائدة، الآية: ٨٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٥) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

ثم تأتي جملة الآيات الحربية الأخرى التي هي بمثابة رد الظلم ودفع الأخطار ووقف نزيف الاعتداء على حقوق البشر، ثم أن الحروب الدفاعية لم تكن غرضها فرض الدين عليهم بقدر تبيان شوكة الإسلام واستضهار القوة والعزيمة والعمل على الدفاع عن المقدسات الإسلامية وإلا فإنه من غير المعقول أن يقول القرآن اقتلوهم من حيث ثقفتموهم وهو يرغب في جبر خاطرهم نحو الإسلام!! أو ينادي لا اكراه في الدين ثم يعلن أن السبيل لذلك هو القتل حيثما كانوا!! أليس في ذلك تناقض.

ثم لاحظ عزيزي القارئ أن كل الآيات انفة الذكر الموجهة ضد قتل المشركين جاءت كردود أفعال، فاذا انسلخ الاشهر الحرم حيث كان المشركين مترصدين للدين فانطلقوا لقتالهم وهكذا، أي أنها ارتبطت بثمة أحداث سياسية وعسكرية محددة، ولم تكن من نصوص الثوابت والسنن التي تكون عادة مغتربة عن اجواء الحدث التي وقعت في حينها ومنفصلة عن اجواء المعارك مما يؤكد لنا أن هذه النصوص من المتغيرات وايات السلم من الثوابت.

رابعاً: هل تطبق العقائد بالقوة ؟؟

يثار تساؤل آخر يثير زوبعة تشكيك في الفكر الإسلامي.

والسؤال هو: إن عدم استخدام القوة يعني التوقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال حديث ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وأن عدم قطع يد السارق مثلًا ومعاقبة المجرم سيعطل حدود الله ؟؟ فكيف ظنك بأمر الجهاد الذي يعتبر من أخطر الامور ؟؟

إن تنفيذ حدود الله اولا لابد أن يترافق مع سيادة أحكام الله فكيف نريد قطع يد السارق الذي يعيش في مجتمع لايرفل بحكم الإسلام، أو أنه يتحلل من هذه الاحكام، أو قد يكون ذلك السارق يعيش تحت شظف العيش مما قد يفقد شرائط قطع اليد، وهكذا واجب القتال لن يخضع في مجتمع لم يخضع للإسلام.

إن على المسلم التزام الدعوة والبيان ولايتجاوزها إلى تطبيق الحدود حتى يسلم المجتمع له.

ثم أنه لايكون تطبيق أحكام الله بالفوضى، وإلا فدليل حرمة قتل إنسان لفظ الإسلام ولو باللسان ذلك الحديث الشريف (هلا شققت قلبه) الذي زجر ﷺ من قتل كافرا في المعركة برغم أنه تشهد الشهادتين خوفا، وقول القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1]. أن الآية صريحة بتوبيخ واتهام من لا يكبح دوافع العدوان حيث اتهمهم الله بسوء القصد بانهم يبتغون عرض الحياة الدنيا.

عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف واصحابا له اتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة قال: (إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم)[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٢) (المصدر السابق).

وثانياً من أعطانا الحق في تنفيذ أحكام الله بهذه الصورة، فإن اجتمع بعض الأفراد سرا واصدروا حكم الاعدام بالبعض وأعطوا لأنفسهم سلطة تنفيذ مثل هذه الاحكام لايكونون في الواقع قد خدموا الإسلام وأيدوه، لأن الإسلام لايعطي أمر اصدار مثل هذا الحكم وتنفيذه حتى في القصاص من القاتل المعتدي لأي فرد عادي في المجتمع الإسلامي ولا لبعض الأفراد الذين لم يسلم لهم المجتمع بذلك. أن الخطأ ناشئ في فقه القضية ونقص في ادراك الإسلام وتجلياته.

ثم أن تنفيذ حدود الله منوط بالاستطاعة للمنكر -بكسر الكاف- ومنوط بالمصلحة للمنكر - بفتح الكاف- فمن استطاع أن يغير بيده يقوم بذلك بشرط إلا يترتب عليه منكر اكبر منه ولايدخل في هذه المسألة الدماء لأن الدماء يحتاط لها الشرع احتياطا عظيما. كما يجب دراسة الواقع المعاش وتحديد اساليب التغيير في المجتمع لابد أن تترافق ضمن اطار المصلحة والظروف المحيطة.

يقول الدكتور فتحي يكن في تفسيره لحديث (من رأى منكم منكرا): هذا الحديث واضح الدلالة على أن تغيير المنكر مناط بالاستطاعة وعدم جلب مفسدة، وتعدد درجات التكليف يفيد عدم العنت والمشقة ويفيد التيسير لا التعسير. ثم أن الحالة الإسلامية اليوم ليست مدعوة لازالة منكرات صغيرة في ظل اوضاع وانظمة ونظم وقوانين منكرة والدعوة الحكيمة هي تلك التي تعمد إلى التغيير على أساس بناء المجتمع - كل المجتمع- بناءا سليما. فتحطيم متجر لبيع الخمور -مثلا- لايحل مشكلة مادامت القوانين تسمح بذلك، من هنا كانت السنة الربانية الكونية في التغيير تعتمد على تغيير الأساس لا الذي ترتب عليه وتوالد منه ناهيك

عن أن الانشغال بفروع المنكر من شأنه أن يشغل الدعاة عن الانشغال بأصوله ومنابعه إلى أن يستدرجوا إلى معارك جانبية تستنزف جهودهم وتحبط أعمالهم وتوقف مسيرتهم وتجهض مشروعهم[1].

هذا لايعني أن كل أشكال تنفيذ أحكام الاعدام والنهي عن المنكر مرفوضة بل إن من موجبات الدفاع عن السلام قتل المفسد الظالم ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]، ذلك أن الطبيب إذا أراد أن لايتسبب في زيادة آلام المريض أو وفاته يلجأ إلى بتر العضو الفاسد، إلا أن تطبيق أحكام الله لا تتم بالفوضى بل بطرق متسامحة ومنهجية وضمن اصول منطقية، وهذا بالتحديد أمر منطقي ومعقول عند كافة الحضارات المعاصرة، فلماذا أضحى أمراً مستهجنا عند الإسلام ؟؟.

حكم المرتد وشبهاتها

ولكن ماذا بشأن حكم المرتد والتي يدعو الإسلام لقتله إلا تعبر عن تناقض مع الدعوة لحرية الفكر والعقيدة ؟؟

لا شك أن الإسلام لايجيز إجبار أحد على أعتناقه أو اعتناق أي ديانة أُخرى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ بل أنه لايقبل إسلام المجبر ولايعده مسلما. لكن مسألة الارتداد لاتتصل بقضية الحرية في العقيدة بقدر اتصالها بقضية الانتماء للهوية الإسلامية بحيث يشكل رفضه لها خللا في النظام العام «فالمرفوض شرعا هو الاعلان عن الرفض الذي يؤدي للتمرد على النظام العام وليس الطرح الفكري في النطاق الموضوعي. لأن الإسلام

(١) (يكن، فتحي -فقه القوة والعنف والإرهاب مجلة المجتمع الكويتية العدد ١١٧١).
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

لايريد للإنسان أن يكفر من دون أساس للكفر كما لايريد له أن يؤمن من دون أساس في الإيمان»[1].

المشكلة في قضية الارتداد إطلاق الحكم على عواهنه حتى على من يشكك في الشبهات المتصلة بقضايا الدين مما تثير جدلا عقيما تسبب هذا التشويه لأصول الدين، ذلك أن الكثير من قضايا الدين لم تحسم وتركت في مناطق فراغ للاجتهاد، بل إن التقليد في اصول الدين غير مباح مما يفتح بابا مشرعة لمناقشة الكثير من الشبهات وتداول الاراء وتوسعها.

يقول الامام الشيرازي (اما المستثنى - من الحكم بالقتل - الارتداد لشبهة واقعية فإنه لايعقل عقابه لا في الدنيا ولا في الآخرة ويضيف قائلا: أن الإنسان الشاك لايعقل أن يكلف باليقين لأنه تكليف بما لايملكه وذلك محال عقلًا ودل الدليل على عدمه).

ويقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين بحكم قتل المرتد (اذا لم يكن الانكار عن شبهة وهو مادلت عليه روايات كثيرة وصرح بهذا كثير من الفقهاء المسلمين وأعتبره علماء الكلام من البديهيات)[2].

ولو استقرءنا النص القرآني لوجدنا أن الله تعالى يقرر أن جزاء المرتد أن تحبط أعماله في الدنيا ويخلد في نار جهنم خالدا في الاخرة، وأن جل جزاءات المرتد ترتبط بقراره سبحانه وحده ولاعلاقة للبشر في تنفيذه. ذلك أن قضيتي الإيمان والكفر أمر يخص الله وحده وليس من حق أحد من البشر أن يقرر بما ليس له، حيث لم يطرح القرآن أي نوع من انواع

---

(١) (المويس، عبد الله الحرية الفكرية في الإسلام - مجلة البصائر العدد ١٥).

(٢) (المصدر السابق).

هدر دم المرتد في عدة مواضع منها:

* ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[1].

* ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[2].

* ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

وما دام أن النص القرآني واضح وحاسم فلاحاجة للشبهة فيه ولا معنى للعودة إلى مصادر اخرى.

لكن يدعي البعض أن رواية الرسول ﷺ (من بدل دينه فأقتلوه) دليلا على جواز قتل المرتد ؟؟.

لكن هذا الحديث فيه الكثير من الشبهات ذلك أن نص الحديث - أن

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٨٦ - ٩١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

صح - يدعو لقتل كل من بدل دينه في مجتمع الإسلام حتى وأن كان يهوديا أو مسيحيا أو هندوسيا بل وحتى لو اختار الإسلام دينا له بدلًا من دينه الذي ارتضى تغييره، وهذا خلاف المنطق والعقل.

وقد جاء اعرابي إلى رسول الله طالبا بيعته وبايع الرسول ﷺ على الإسلام، ثم اصابته وعكة فتشاءم الرجل من الإسلام وذهب إلى الرسول يطلب رد بيعته فرفض الرسول ﷺ لأنه لايملك هذا الحق، فالبيعة بين الإنسان والله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وقد قرر الرجل أن يترك الإسلام ويغادر المدينة، وفعلا تركه الرسول يذهب لحاله.

وفي صلح الحديبية وافق الرسول ﷺ على أن يأتي إلى المدينة من أهل مكة فإن المسلمين يلتزمون برده إلى مكة، ولكن إذا ارتد أحد من المسلمين وذهب إلى مكة فأن أهل مكة لايلتزمون برده إلى المسلمين، فهل من الممكن أن يوافق رسول الله على أمر يتناقض مع تعاليم السماء!!.

حتى أن الحروب التي أعقبت وفاة رسول الله اطلق عليها خطأ بالردة وإلا فإن دوافع نشوبها لم تكن بسبب ارتداد المسلمين من امثال سجاح ومسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد والاسود العنسي مدعي النبوة أو قبائل عبس وذيبان، بل كانت بسبب ماجناه هؤلاء من جرائم وانتهاكات مفجعة وخراب في المدينة اضافة إلى تهديدهم لاركان الكيان الإسلامي ودولته، ناهيك عن انحرافاتهم الدينية حيث حذفوا السجود من الصلاة بحكم أن فيها مشقة وتعبا واعفوا قبائلهم من الزكاة، ثم أغاروا على المدينة المنورة وأقاموا الاحلاف لمحاربة الحكومة وحاولوا فرض شروطهم بقوة السلاح على الخليفة الاول مما تسبب في فساد كبير وفوضى عارمة لايمكن وقفها من دون مواجهة.

بقول محمد أقبال في كتابه (قصة الإسلام): «أن المتمردين عذبوا المسلمين أشد العذاب، فمن استطاع أن يفلت من ايديهم ذهب إلى المدينة المنورة، ولم يكتف المرتدون بذلك بل أعدوا العدة لشن الغارة على مركز الخلافة الإسلامية.. المدينة المنورة».

إن دافع الحروب اذن لم يكن سبب الارتداد وإلا فإن الإسلام لا يحارب المرتد على ارتداده[1].

خامسا: مشروعية العنف

تبرز امامنا ثمة تساؤلات مشروعة وأشكاليات تناهض مفهوم اللاعنف وترفع شعار المشروعية للممارسة العنف مما تجعلنا في حاجة ملحة لوضع اليد على جوهر الامور والاجابة المنطقية لمجمل الإشكاليات.

العنف.. هل هو غريزة إنسانية ؟

يفسر البعض إلى اعتبار العنف انتماء الفرد لرد الفعل (الطبيعي) حيث يلعب نفس الدور الوظائفي في شئون الطبيعة الذي تلعبه الغرائز الغذائية والجنسية في الصيرورة الحيوية للأفراد والانواع ويتحرك انطلاقا لاحتياجات جسدية ضاغطة ؟ فالعنف ضمن هذه الرؤية التعريفية تصور مشروع وطبيعي...

ما يقصد بذلك الحالات القصوى التي يباح بها العنف لرد العنف من

---

(١) (باقتباس: ثابت، مصطفى - محكمة الفكر -الشركة العالمية للنشر والتوزيع - تورونتو ١٩٩٧).

مثيل التلميح بالسلاح أمام اللصوص والقتلة الذين ينون الاعتداء أو رد المعتدي والدفاع عن النفس وغير ذلك فهو من باب الرفض.

ذلك أن العنف لرد العنف هو دفاع عن اللاعنف أساسا، لأن الهدف هو الدفاع عن اللاعنف. فالمسألة اذن ليست حمل سلاح أو عدمه، أما كان الامام علي عليه السلام يرسل عدة رسائل لمعاوية لوقفه عن الحرب، لأنه كان يدافع عن اللاعنف.

من ناحية أُخرى فإن كان الانتحاء نحو العنف تعبيرا عن حاجة طبيعية، فإن توفير درجات الاشباع للحاجيات الأخرى أكثر أهمية، فالحاجة للامن والانتماء والحب والحاجة للتقدير وتحقيق الذات والحاجات الجمالية وحاجة الإنسان للمعرفة والفهم كلها متطلبات تهيء الاجواء لسيادة السلم والامن.

اللاعنف . سلاح روحي

يثار تساؤل اخر وهو.. ماجدوى الالتزام باللاعنف مع من لايلتزم بها؟؟ أنه مثل من يلتزم بالأخلاق مع من لايعترف بها ؟ فهل علينا أن نقف مكتوفي الايدي تجاه اسرائيل مثلًا التي لاتعرف المواثيق والاعراف وتمارس العنف ليل نهار ؟

من المؤكد أن العنف هو مجرد سلاح جسدي مادي بينما اللاعنف سلاح روحي يجسد كل المعاني الأخلاقية والقيم المثلى وبطبيعة الحال فإن سلاح الروح أقوى وأمضى من سلاح الجسد.

إضافة إلى ذلك فإن المؤمن بطرح الشبهة السابقة يتجافى قيم الحق

والأخلاق كسلاح في كفاح البشر لترسيخ حضارة ناهضة، وإلا فما ينبغي أن يقول الباري عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]. فلو كان الاعتراض السابق صحيحاً لما أمكن التفريق بين المعتدي والمظلوم ولفقدنا الثقة بالعقل الإنساني في التمييز بين المصلح والمبطل، ثم أن تفادي مثل هذا الأمر لايتم بتقليد الباطل في اسلوبه وطريقته وانما بألتزام الأخلاق في كل الظروف وهذا مايمتاز به الإسلام عن الانتهازية التي تتقولب ولاتثبت على مبدأ.

لقد نجح غاندي في طريقته المتسامحة مع المحتل البريطاني الذي لم يكن يؤمن بسوى العنف، كما أن العصيان المدني في الكثير من البلدان نجح في ترحيل الحكام الديكتاتوريين كالشاه في ايران مثلًا وسوهارتو في اندونيسيا، بل تذكر التقارير أن العصيان المدني في الكويت خلال غزوها من قبل جيش طاغية العراق كان يؤرق المحتل أكثر من المواجهة المسلحة. حتى أن السود في جنوب افريقيا التزموا اللاعنف شيئاً ما ونجحوا في الوصول للحكم.

القرآن الكريم يبرع في استنطاق الرفق في مشهد القصاص الدرامي حيث ينص على قتل من قتل أحد من اقربائك ولكنه يردف ليقول: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] ليثبت نظرية أن اللاعنف يفيد على المدى البعيد.

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ٣٤.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٤.

هل نهرول نحو العنف ؟؟

يؤكد الكثيرون أن الدعوة لمفهوم اللاعنف دعوة الضعفاء والمنهزمين الباحثين عن الدعة والضعة والراحة كما أن بعض من يتجنب العنف بسبب أنه غير متيسر، حيث يحتاج إلى إمكانيات مادية وبشرية وميليشيات ومخازن اسلحة ومتى ماتوفرت الإمكانيات سيهرول للعنف عاجلا ؟؟!!.

بادئ القول لابد أن نلج إلى اصل نشأة العنف، لأن العنف مرفوض أساسا فمن يعتقد برجحان منطقه وفكره وأن خصمه وما يحمل من فكر لايمكن نقاشه أو قبوله فإن ذلك تمهيدا لبزوغ فكر العنف، حيث لايستطيع الفرد الرقي لمحاورة خصمه ومناقشتة فتتحول افكاره إلى مسلمات وبديهيات غير قابلة للنقض.

والسؤال الذي لابد أن نجد اجابة له هل العنف وسيلة استحقاقية للوصول إلى الاهداف المرجوة ؟؟ هل يوصلك للهدف اسرع وهل هناك تجربة تاريخية واحدة تؤكد ذلك ؟؟!!.

لقد تكشف التاريخ لنا عن أحداث كارثية أكدت عكس ما يظن البعض فقد ادى العنف في الجزائر مثلًا إلى حصد أكثر من ٤٥ الف ضحية دون جدوى ولو سنحت فرصة اقامة انتخابات جديدة فلن تحصل جبهة الانقاذ الإسلامية - التي كسبت الانتخابات البرلمانية بجدارة والتي بسببها الغيت الانتخابات وسببت أزمة سياسية عاصفة نحت نحو العنف - لن تحصل على ربع ماحصلت عليه سابقا، وفي العراق خلال انتفاضة شعبان بعد حرب تحرير الكويت سيطرت المعارضة على ثكنات عسكرية ولكن لم تنتصر..

بل إن العنف يؤدي باصحابه إلى الانقلاب حتى على الاصدقاء ورفقاء الدرب. فبمجرد اختلاف في وجهات النظر ينحى الصراع إلى منحى دموي بشع حيث يصبح صديق الامس غادرا عميلا، فتنصب المشانق وتحصد الرقاب كما حدث في افغانستان!!. أن العنف يفقد اصحابه مبادئ حقوق الإنسان والفكر المدني وهو انتحار كبير لقيم المجتمع الإنساني.

وفوق ذلك فإن القول بخواء وضعف دعاة اللاعنف تشكيك بسيرة الانبياء والمرسلين والمصلحين بل وتشكيك بالقرآن الكريم الذي مابرح يبشر بالتسامح.

اللاعنف ونيل المصداقية

الكثير من الإسلاميين يؤمنون باللاعنف لكنهم ينتشون لإحداث إرهابية ويصفقون لها لمجرد انها اصابت كبد عدوهم وغريمهم. ألا يشكل هذا المنحى شكلا من التناقض الغريب ؟؟!.

إن نيل المصداقية في العمل تتطلب التزاما واقعيا بمفهوم اللاعنف والعمل بالمبادئ التي يبشر بها العاملون.

فلايجوز للحركة الإسلامية أن تحرم على الناس ماتحلله لنفسها ولا توجب عليهم ماتتملص منه، أن من واجبها أن تكون صادقة في الزام اتباعها بالمفاهيم والقيم الرائدة.

إن التماس المصداقية تحتم الاهتمام بجوهر العاملين في الساحة وأهم مصاديق تطبيق اللاعنف هو أقصاء العنف من قلب وصدر البشر اما قال الامام علي عليه السلام (أحصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك) ويقول

ايضا في وصية يوصي بها عامله في مصر (ولاتكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فأنهم صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ولاتندمن على عفو ولاتبجحن بعقوبة)[1].

إن سقوط الحركات في مستنقع العنف والتصفيق لإحداث إرهابية وتاييدها سيان ودليل جلي على خواء الشعارات والوعود مما قد يفقدهم ثقة الجماهير ويسقط مصداقيتهم في الساحة، ولاسبيل حين رفع شعار إلا بالتأكيد على ثقتنا من القدرة على تنفيذه والتصميم على وضعه على أرض الواقع.

* * *

(١) (جرداق، جورج -علي وحقوق الإنسان منشورات دار الحياة بيروت ص ٢٠٦).

الفصل الثالث:

العنف.. الدوافع والأسباب

تقف خلف كل سلوك جملة دوافع وعوامل تفسر أسبابا كامنة تعلل انتهاج السلوك المعين. وظاهرة التطرف والعنف لها أسبابها ودوافعها وعلينا تحديدها بشكل واضح للوصول إلى جوهر الحلول وجذورها، ولاشك إننا سنكون في حالة إرباك إذا لم نعرف حقا الأسباب التي تدفعنا وتسيرنا، من هنا علينا تحاشي الأحكام المتسرعة لظاهرة العنف.

لكن هناك عدة ملاحظات منهجية في بحث مسألة الدوافع والاسباب:

١ - أن العنف ظاهرة مركبة متعددة التغيرات، ولا يمكن تفسيرها بمتغير أو عامل واحد فقط. فالمؤكد أن هناك مجموعة من العوامل تتفاعل بل تتداخل وتترابط وتؤثر بعضها على بعض سلبا أو ايجابا فيما بينها لتفجر اعمال العنف.

٢ - أنه يجب التمييز بين الاسباب المباشرة والموقفية التي تفجر اعمال العنف، وتلك العوامل غير المباشرة أو الكامنة التي تقف خلفها. فالاولى تعتبر بمثابة المناسبات والشرارات ولكنها ليست الاسباب والعوامل البنائية الكامنة التي تولد الظاهرة. فقيام حكومة ما برفع اسعار بعض السلع مثلاً سبب عنفا جماهيريا فإنه لايعد السبب الرئيسي للعنف حيث يرتبط غالباً بوجود أزمة تنموية تتمثل بعض

ابعادها الاقتصادية في موجات التضخم والبطالة والعجز في ميزان المدفوعات والديون[١].

واذا كان مقتل شخصية سياسية يعد سببا في اندلاع الحرب الاهلية اللبنانية عام ١٩٧٥، فإنه من المحتم أن خلف هذه الحادثة تقف ثمة اسباب مباشرة لاندلاع العنف كان هذا الحدث شرارة نهوضها على أرض الواقع.

٣ - أنه على الرغم من تعدد وتداخل العوامل التي تؤدي إلى حدوث ظاهرة العنف، إلا أن التأثير النسبي لهذه العوامل ليس واحدا، بل يختلف من دولة إلى اخرى، طبقاً للاختلافات والتمايزات المرتبطة بالتركيب الاجتماعي والثقافي والبناء السياسي والظروف الاقتصادية. وفي بعض الحالات، يمكن القول بوجود عامل أو عوامل جوهرية أو مركزية تؤدي إلى اعمال العنف بينما يأتي تأثير العوامل الأخرى في مرتبة تالية. فعلى سبيل المثال، كانت تعتبر أزمة التكامل وتسييسها عاملا محوريا للعنف السياسي في السودان والعراق بينما الازمة الاقتصادية كانت عاملا جوهريا للعنف السياسي في لبنان وتونس في الثمانينيات[٢].

من هنا سنكون في طرحنا للاسباب الكامنة خلف ظاهرة العنف نحوم حول العموميات الفكرية والثقافية في تفسير نهوض العنف داخل ادمغة الناس، دون أن نتعمق في مسألة تفاوت الظرف والمكان، لايماننا بأن

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

(٢) (المصدر السابق).

العنف أمر نسبي متعدد الاوجه حيث أن هدفنا معالجة العنف في داخل العقول.

والأسباب الفكرية الكامنة وراء ظاهرة العنف عديدة نذكر بعضها:

اولا: الثنائية الفكرية

تعتبر الثنائية الفكرية المتمثلة في رؤية الواقع محصورا بين دفتي الحق والباطل أو الحرمة والحلية أو الصواب والانحراف لكافة خصومنا هي ابرز أسباب نشوء العنف، ويسمى العنف الفكري بالتعصب والتزمت وفي لسان العرب لابن منظور يقول تعصب الرجل أي دعا قومه إلى نصرته والتألب معه على من يناوئه سواء كان ظالما أو مظلوما، وجاء في الحديث العصيب هو من يعين قومه على الظلم. ويعرف روجيه جارودي التزمت بأنه إقامة مطابقة بين الأيمان الديني أو السياسي من جهة وبين الصيغة الثقافية والمؤسساتية التي تلبسها في لحظة من لحظات الماضي من جهة أخرى. ويضيف «إن التزمت يعني إيقاف عجلة الحياة والتطور والاعتقاد بأنني كمسيحي مثلًا أو كيهودي امتلك الحقيقة المطلقة دون غيري»[1].

ويقول الدكتور علي الدين هلال في ندوة بجامعة القاهرة حول التطرف الفكري عام ١٩٩٤ «إن التطرف يبدأ بالعقل ثم ينتقل إلى السلوك»، ويضيف «إنها ظاهرة عالمية تتسم بمجموعة من السمات المشتركة أهمها توهم احتكار الحقيقة والتفكير القطعي ورفض الاختلاف والتعددية، واستخدام الألفاظ والمصطلحات السياسية الغليظة كالخيانة والكفر والفسوق.. الخ، وعدم التسامح».

---

(١) جارودي، روجيه: الحركات الأصولية بين التزمت والاعتدال.

وقد حدد مفتي الجمهورية د. سيد طنطاوي في الندوة ذاتها الإنسان المتطرف بأنه «المتجاوز للحدود الشرعية في أي أمر من الامور حتى في العبادة نفسها»[١].

ومن الذين طرحوا رأيا متميزا في مجال تعريف التطرف الدكتور سمير نعمي أحمد استاذ ورئيس قسم الاجتماع في جامعة عين شمس حيث قال أن التطرف ليس كما يشاع بأنه خروج عن المألوف فكل الاديان السماوية كانت خروجا عن ما ألفه الناس، بل أنه مرادف للكلمة الانجليزية Dogmatism أي الجمود العقائدي والانغلاق العقلي.

ويستطرد الباحث بنظرة إلى معتقد المتطرف إذ تقوم على:

١ - أن المعتقد صادق مطلقا وأبديا.

٢ - يصلح لكل زمان ومكان.

٣ - لامجال لمناقشته ولا للبحث عن أدلة تؤكده أو تنفيه.

٤ - المعرفة كلها بمختلف قضايا الكون لا تستمد إلا من خلال هذا المعتقد دون غيره.

٥ - ادانة كل اختلاف عن المعتقد.

٦ - الاستعداد لمواجهة الاختلاف في الرأي أو حتى التفسير بالعنف.

٧ - فرض المعتقد على الاخرين ولو بالقوة[٢].

إن احتكار الحقيقة والحق الأوحد في التمتع بالبقاء والحياة هو بمثابة الإرهاصات الأولية للمجازر التي شهدها ويشهدها عالمنا المعاصر، حيث

---

(١) (صحيفة الوطن الكويتية ١٩٩٤/٢/١٢).

(٢) (ظاهرة العنف والتطرف، منتدى التنمية مايو ١٩٩٦).

تنشأ الاختلافات الدينية والعرقية والمذهبية المتعصبة وتتحول لمجادلات عقيمة وسلوكيات ثأرية ناقمة.

وقد أثبت التحليل النفسي أن الثنائية الفكرية تقلص الحقل الذهني وتساهم في هبوط الاهتمامات من خلال الازدراء واللامبالاة تجاه كل مالا يكون غرضا من أغراض هواه وحماسه، ويقين لا يتزعزع في صواب فكره مما ينسل إلى إسقاط العدوانية على الآخر وممارسة أفعال ضد المحيط تقود إلى علاقة سادية مع هذا المحيط.

أن المتعصب ذو الفكر الأحادي يعيش في قمقم نرجسية فكرية تحوم حوله هالة قدسية تصبغ حياته في طيف واحد منحوت بالإيمان والعدل والحق الخالد، وبفضل ذلك سيتوصل إلى تغيير العالم وإنقاذه من ويلاته على طريقة الفانوس السحري والى اجتلاب الفردوس والنعيم لبني البشر، أن ذلك من شأنه أن ينهض فكرة إسقاطية في عقل المتعصب تريحه من كل شبهات الضعف والقصور البشري الذي يحيطه طالما ظل في هوس الظنون بالهيمنة الفكرية لمنطقه وفكره وعقيدته.

لاشك أن النظرة الثنائية نابعة من حالة أن هناك حدودا واضحة تفصل بين الذات والموضوع، والذات لابد أن تدافع عن وجودها بأن تعلن صوابها وخطأ الآخر وتدافع عن ذلك الوجود باستماتة ولاترى إمكانية أن يكون الوجود حقا للطرفين، ولكن هذا المنظور تبدو خطورته عندما تبدأ السلوكيات والمواقف بالازدواجية والغموض وعندها تتولد ظاهرة التطرف والتعصب والعنف والتشدد.

وقد ظهرت فرق كثيرة أمنت بمطلقية امتلاك الحقيقة أبرزها الخوارج

ومن ثم الغلاة الذين وظفوا معتقداتهم لصالح هيمنتهم الأيدلوجية وبدا أن هناك نهوضا لفتاوى التجريم والمروق عن الدين بدعوى مخالفتهم للدين وتكرست بشكل مفجع في التاريخ الإسلامي- وحتى زمننا المعاصر- لكل من يصبو نحو التغيير أو التطوير أو البحث الجاد.

يقول أديب إسحاق (مفكر عربي ولد في لبنان وعاش في مصر في منتصف القرن التاسع عشر) (حد التعصب عند أهل الحكمة العصرية غلو المرء في اعتقاد الصحة بما يراه وإغراقه في استنكار ما يكون على ضد ذلك الرأي حتى يحمله الإغراق والغلو على اقتياد الناس لرأيه بقوة ومنعهم من إظهار ما يعتقدون ذهابا في الهوى في ادعاء الكمال لنفسه واثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق).

ويضيف إسحاق (أن التشبث بالرأي الأوحد وتأكيد صحته المطلقة هو خطأ كبير لأن الإنسان ولكونه إنسانا يعجز فهمه عن إدراك الكثير من أسرار هذا الوجود وانه ككائن بشري ممتنع عن الكمال فقد كانت هناك (حقائق) في عصر ما تبين إنها (أوهام) في عصر أخر)[1].

ويقول الزعفراني في الاستدلال على محدودية القدرة الإنسانية (كنت يوما بحضرة أبي العباس ثعلب فسئل عن شيء فقال لا أدري، فقيل وكيف لا تدري واليك تضرب أكباد الإبل ؟ فقال: لو كان لأمك تمر بقدر ما أدري لأستغنت. وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري فقيل له فبأي شيء تأخذ رزق السلطان ؟ فقال لأقول فيما لا أدري لا أدري)[2].

---

(١) (الرميحي، د. محمد مجلة العربي العدد ٤٤٢ سبتمبر ١٩٩٥).

(٢) (المصدر السابق).

إن تعصب الاعتقاد هو من اخطر أنواع التعصب إذ أنه يمهد لإحداث سلسلة حافلة بالأخطاء ويعطي المبرر الشرعي والغطاء الرسمي لتكريس ظاهرة العنف تحت ذريعة المعتقد والمذهب والدين.

والتعصب يمنح الامان المعرفي وتوطيد النرجسية لمعتنقيه مما يبيح التوغل في العنف، وقد لوحظ أن الفرنسيين خلال الثورة الفرنسية كانوا كلما يريقون دما كان يلزمهم الاعتقاد بمطلقية مبادئهم فالمطلقية وحدها كانت لاتزال قادرة على تبرئتهم في نظر أنفسهم وعلى دعم طاقة اليأس عندهم[1].

في الوقت ذاته تتكرس مفاهيم المفاضلة والتميز عند المتطرف حيث يصبح مفهوم الطليعة والقيادة والريادة والأفضلية على «كل الاخرين» ونفي حق وجود الاخرين من الأساس وليس هناك مكان للحديث عن الانفتاح والتواصل، هذه السلسلة من المفاهيم الفضفاضة تصبح جزءا من البنية النفسية والشعورية داخل الفرد والجماعة التي ينتمي لها وعلى أساسها تتبلور بعض الانماط السلوكية في التعامل مع الواقع الخارجي ومع الفئات والجماعات الأخرى يعبر عنها الدكتور القرضاوي نظرة الجماعة إلى نفسها «على انها جماعة المسلمين وأن معها الحق كله، وليس بعدها إلا الضلال، وأن دخول الجنة والنجاة من النار حكر على من اتبعها، وانها وحدها الفرقة الناجية ومن عداها من الهالكين»[2].

بل إن التزمت والتعصب يؤول إلى التحجر والجمود المضاد لكل تغير

---

(١) (سيكولوجية التعصب اندريه هاينال- ميكلوس مولنار- جيرار دي بوميج دار الساقي ١٩٩٠).

(٢) (مجلة الكلمة، العدد ١٨، منتدى الكلمة للدراسات والابحاث بيروت ١٩٩٨).

أو تطور وهذا من شأنه يضغط المتزمت إلى زوايا دحر الإصلاح أو تعديل مسلكيات تفكيره كيلا تتأقلم مع الظروف الجديدة حتى يصل إلى الاعتقاد أنه يستحيل استيعاب أن فكرته أو عقيدته تحت الشبهات!!.

ويرجع البعض إلى تنامي التعصب والعنف الفكري في الفرد حيثما يكون الفاعل مهووسا بشبكة تمثلات وتخيلات تؤول إلى اشغال كل الفضاء الذهني مع استبعاد أي تطور يطرأ أو طرأ عليه وتسيطر على الفرد نوعاً من الوهم بقدرته على محاكاة الجميع ضمن دائرة حقيقته المطلقة.

ويفسر البعض انتحاء ضعاف العقول إلى فكر العنف نظراً لضيق الافق وفقدان الوعي، لكن الدكتورة زبيدة محمد عطا أستاذة التاريخ الوسيط وكيل كلية الآداب في جامعة حلوان فندت هذا الرأي بدراسة متميزة بعنوان «الإرهاب الفكري بين تنظيمات الباطنية والتنظيمات الأصولية الحديثة» حيث أشارت إلى أن اغلب الدعاة كانوا من المفكرين وطبقة المثقفين، فقد درس الحسن بن الصباح (صاحب نظرية النزارية الداعية لمحاربة التنظيمات الإسماعيلية التي خالفته) فقه الإسماعيلية وانتقل إلى مصر ثم أعلن مذهبه وكان سيد قطب على قدر كبير من العلم وأيضا صالح سرية مؤسس تنظيم الجهاد العسكري حاصل على دكتوراه في التربية وكان شكري مصطفى مؤسس جماعة التكفير والهجرة حاصلا على بكالوريوس زراعة وكان عبد السلام فرج (احد قيادات الجهاد ومدبر عملية اغتيال الرئيس المصري السابق أنور السادات) حاصل على بكالوريوس هندسة اما عمر عبد الرحمن مفتي الجهاد ومنظم الجماعة الإسلامية فهو أستاذ جامعي في كلية أصول الدين!!!)[1].

---

(١) (صحيفة السياسة الكويتية العدد ٩٨٨٠ في ١٩٩٦/٥/٢٩).

حتى أن الباحثين في الاطار الاجتماعي لحركات الإرهاب يلحظون وجود ابناء الطبقة المتوسطة والعليا مجندين لهذه الحركات ومستعدين للانخراط فيها، حيث يتميزون في العادة بقدر متوسط أو عال في التعليم، ومستوى دخل معقول أو حتى مرتفع، وقدرة على التنظيم والعمل السري، ولاتتوافر هذه القدرة عادة إلا لابناء الطبقات المتوسطة أو العالية في بلادنا.

من هنا يبدو لنا إننا اقرب إلى تفسير ظاهرة انتحاء الفرد للعنف إلى انهيار المثل والقيم الحضارية في العقل تتسبب في إحداث خلخلة فكرية وأيدلوجية يضطرب معها العقل ويصاب بنوع من الهروب إلى العنف.

وبقراءة عاجلة إلى أفكار سيد قطب التي شكلت منبعا هاما نهلت منه الجماعات المتطرفة نجد أنه اعتمد على ثلاثيته المتمثلة في جاهلية المجتمع والحاكمية لله وتوصل إلى ثالثة الأثافي بإعلان الجهاد لفرض حاكمية الله على الفرد والمجتمع.

وتبدو لنا أن الثلاثية خلقت اغترابا نفسيا بين الداعية والمجتمع ضمن قيم مثلية تكرس نخبوية المؤمن بها دافعة لثنائية فكرية تجعل الحياة ضمن نطاق آليتي الحق والباطل وحسب!!.

ولعل ثلاثية سيد قطب -رحمه الله - كانت تدعو فيما تدعو إلى صياغة فكرة الحقيقة المطلقة عند جماعة الإخوان المسلمين والتي تحتم جهل وفساد كل المجتمع غير المؤمن بنظريته في انجراف غير منطقي ومربك للعقل.

ولسنا في صدد الغلو في تحليل موقف وسلوك المتطرف، لكننا بحاجة

ماسة إلى فهم حقيقة أن الصح يمكن أن يكون أكثر من شكل وطيف وأن الخطأ يمكن أن يكون أكثر من شيء وأن بين الصواب والخطأ درجات نسبية متفاوتة، واننا مطالبون بالتخلي عن الثنائية الفكرية التي قد تجر الويلات على ديننا ومعتقداتنا وطريقة تفكيرنا بل قد تمس إنسانيتنا ذات التعدد الذوقي والفكري والشعوري.

ثانيا: التركيبة النفسية وتأثيرات البيئة:

لا شك أن البيئة تفرض ضرورتها على الناس وتشكل طباعهم، إذ شكلت عنصرا مفصليا في نشأة التطرف والتزمت حيث ساهمت البيئة في إحداث أزمات اقتصادية واجتماعية نتجت عنها جماعات الرفض للتعبير عن نوع من الإحباط والسخط كرد فعل للقهر الاقتصادي والتهمش الاجتماعي.

يقول الدكتور محمد جابر الأنصاري (في نظرتنا لمجتمعات التسامح يجب أن نفرق بين عربين عرب البيئة الصحراوية الذين تعودوا الصراع اليومي من أجل البقاء بحيث يصبح التسامح هنا شيئاً من التهاون في حق الذات وحق الجماعة، وهناك عرب البيئات الحضرية أي الذين سكنوا تجمعات المدن الصغرى في الوديان والواحات وعلى حواف الصحراء وكذلك عرب الطبيعة النهرية التي يتعامل فيها الناس مع نهر يمر عليهم بل إن يمر على غيرهم وعليهم جميعا أن يتفاهموا على تقسيم هذه المياه، ولابد أن يسود بينهم مناخ من التسامح والتآلف يفرضه انتظار الفيضان ومواقيت الغرس والبذر والحصاد)[1].

---

(١) (الرميحي، د. محمد مجلة العربي العدد ٤٤٢).

فالإرهاب لايلجأ إليه بذاته اللهم إلا تعبيرا عن حالة نفسية أو مرضية على المستوى الشخصي وهو مايعرف بال Pathological Terrorism.

ولعل من يستقرأ حادثة اغتيال الإمام علي عليه السلام تتجلى أمامه حقيقة التأثيرات النفسية والبيئية التي تلف مدبر العملية عبد الرحمن بن ملجم. فقد سأله الإمام بعدما طعنه أبئس الإمام كنت لك ؟ فأجابه: لا ولكن أأنت تنقذ من في النار ؟؟ كناية عن انحطاط نفسيته ونقمته على الواقع وحسده على نهوض شعبية الإمام في قلوب الكثيرين.

والعنف يتولد من الحرمان النسبي الذي يفضي إلى التوتر الذي ينشأ عن التعارض بين ماينبغي أن يكون وبين ماهو كائن بالفعل فيما يتعلق باشباع القيم الجماعية الأمر الذي يدفع الأفراد إلى العنف.

ولو تتبعنا مسيرة التاريخ لوجدنا أن تأثيرات البيئة كانت تشكل عاملا حيويا من عوامل استنهاض العنف ففي فترة السبعينات وماقبلها بقليل ظهرت ظاهرة الانقلابات العسكرية في الدول العربية تركزت بشكل كبير في ليبيا والسودان والعراق وسوريا واليمنين وكانت مرجعها البنيان الاجتماعي لهذه المجتمعات وطبيعة التكوين الاجتماعي والسياسي للجيوش وما تضمنها من انقسامات أثنية وقبلية وطائفية. ثم انتقل الحال في الثمانينيات إلى بيئة تعادي الديمقراطية والليبرالية فنبتت الجماعات الإسلامية المتطرفة مستغلة هذه البيئة الخصبة.

كما ظهرت جماعات إرهابية على نطاق واسع في الغرب واوربا بالتحديد في اوائل القرن العشرين حيث شاعت ايديولوجيات معينة تمجد بالعنف وخلقت بيئة تتقبل الإرهاب والعنف كعقيدة سياسية، فظهرت

الاحزاب النازية أو الفاشية فيما استلهمت الجماعات اليابانية عقائد سياسية مماثلة. وحتى وقت قريب شاعت الايدلوجية الديمقراطية لتكون بديلا عن الايديولوجية الفوضوية وحلت عقيدة جديدة أثرت على بيئة الغرب ومعتقداته شيئاً ما.

من ناحية أُخْرى يلحظ أن الشباب من أكثر فئات الانخراط في العنف بحكم التكوين النفسي والفسيولوجي مما جعلهم «أكثر حساسية ازاء المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وأكثر استعدادا للاستجابة العنيفة. من هنا يتسم سلوكهم السياسي بالخيالية والمثالية ورفض الواقع والسعي إلى تغييره، وتشكل بعض مظاهر الازمة المجتمعية التي تعانيها المجتمعات العربية، مثل أزمة الهوية وغياب القدوة السلوكية، واهتزاز القيم والمعايير، وتزعزع الثقة في النظم والحكام، وتزايد الاحساس بالفراغ الفكري والثقافي، هذه العوامل شكلت قوة دافعة لانخراط الشباب في الجماعات والتنظيمات الإسلامية التي تقدم بديلا للاحساس بالامن والهوية ولرفع راية الرفض والاحتجاج ضد النظم والاوضاع القائمة[1].

فيما يعتبر الطلبة شريحة أُخْرى من شرائح المجتمع القريب لمستنقع العنف. والسبب أن الطلبة هم ابناء مختلف طبقات المجتمع وفئاته ومن ثم فإن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تترك اثارها السلبية عليهم بدرجة أو بأخرى وبخاصة في ما يتعلق بارتفاع معدل البطالة ونقص فرص العمل وارتفاع كلفة الحياة وزيادة الاحساس بعجز النظم

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

السياسية عن توفير متطلبات الحياة الكريمة، مما يجعل مواقفهم اقرب للقوى الرافضة للاوضاع والسياسات والنظم القائمة.

كما أن تردي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية يزيد من احباط الفئات الدنيا والمتوسطة في المجتمع مما يغلب طابع العنف على ردود افعالهم. فقد لوحظ أن الشيعة مثلًا في دول الخليج كانوا اداة لممارسة العنف في فترة زمنية محددة عقب اندلاع الثورة الإسلامية في ايران نظراً لمعاناتهم وضعف اوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية مقارنة ببقية مواطني تلك البلدان.

من منظور اخر نلحظ أن أحد بواعث العنف التعبئة الاجتماعية كما يسميها الدكتور حسنين توفيق المتمثلة بمجموعة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي تحدث في البلدان والتي يتم على أثرها هدم بعض جوانب المجتمع القديم وبناء مجتمع جديد وما يتضمنه من تغيرات وتوترات قيمية وسلوكية واقتصادية واجتماعية تنجم عن زيادة الحراك الجغرافي والحراك الاجتماعي والمهني لقطاعات واسعة من المواطنين، هذا إلى جانب زيادة تعرضهم للمؤثرات الحديثة كاجهزة الاعلام وخلافها واحتكاكهم بها، ويمكن أن تكون عملية التعبئة الاجتماعية نتيجة تراكم عوامل داخلية تساهم - بدرجة أو باخرى - في خلق حالة الانبعاث الداخلي وتدفع نحو التغيير. وقد تكون عوامل خارجية متمثلة في الاستعمار والتجارة والاحتكاك الثقافي والحضاري[1].

ومما لاشك فيه فإن التعبئة الاجتماعية قد تكون باعثا ايجابيا يدفع نحو

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

النمو والتطور والنهوض بالمجتمع، إلا انها لاتخلو من قدر كبير من العنف قد تاخذ أشكالا من التغيير الثوري الشامل.

اخفاقات التنمية

يعرف الدارسون في مجال العلوم الاجتماعية ثلاث صور أساسية للعنف اولها العنف المؤسسي الذي تعبر عنه ممارسات بعض الحكومات خروجا عن الدساتير والمواثيق والشرعية التي ارتضتها لنفسها، وثانيها المقاومة المسلحة وثالثها العنف الهيكلي الذي ينجم عن التفاوت في توزيع الدخول والثروات وفرص الحياة أو هو نتيجة الانقسام الطبقي داخل كل مجتمع.

وحديثنا سينصب على الشكل الثالث، حيث دلت احصائيات وتقارير التنمية العالمية أن توقعات الحياة في البلدان المتقدمة تزيد عنها في بلدان العالم الثالث بحوالي ربع قرن تقريبا. فبينما يعيش الفرد في المتوسط في البلدان المتقدمة حوالي ثلاث ارباع القرن، يعيش إنسان العالم الثالث غنيه وفقيره بمتوسط لايتجاوز نصف القرن، وهكذا ينخفض كلما زادت الدول فقرا.

إن التفاوت الاجتماعي يترتب عليه فقر وسوء تغذية وارتفاع معدلات الوفاة مقارنة بالمواليد وتفاوت شاسع في ثورة المواصلات والانظمة والمعلومات مما يشكل عنفا هيكليا تتحقق اثاره بطريقة غير مباشرة.

وبلا شك فإن العنف الهيكلي ينشأ نتيجة اخفاقات التنمية في المجتمعات المعاصرة، فمن ناحية الاخفاق السياسي يظهر غياب فرص التطور السياسي السلمي والديمقراطي وتطفو على السطح عسكرتارية

تقود مجتمع مدني!! فلا وجود للتعددية السياسية ولا وجود لقدر من حرية التعبير، وليس هناك من تداول حقيقي للسلطة، ادى إلى حرمان القوى السياسية والاجتماعية من التعبير السياسي الشرعي وتجاهل أو قمع مطالب الاقليات فيما تسيطر التبعية للخارج جل السلوك السياسي السلطوي، كلها تدفع إلى تجذر التناقضات والاختلالات لتشكل نمو ظاهرة العنف.

ويلاحظ أن النظم العربية تعطي اهتماما متزايدا لاجهزة ومؤسسات القمع والقهر والمليشيات الحزبية واجهزة الاستخبارات اضافة إلى تضخم ميزانيات التسليح وما يصاحبه من هدر وانفاق مالي يسحب من مخصصات مجالات التنمية السياسية والاجتماعية والتربوية الاخرى.

من ناحية أُخْرى تساهم علاقات التبعية والارتماء لاحضان القوى الصاعدة في وجود نظم تسلطية متدهورة الشرعية، يشكل أحد اختلالات المجتمع وتناقضاته ويخلق بيئة ملائمة لحدوث العنف السياسي.

فإحداث الشغب التي عرفتها الاقطار العربية مثل مصر ١٩٧٧، وتونس ١٩٨١، ١٩٨٤، والمغرب ١٩٨٤، والسودان ١٩٨١، ١٩٨٥، كانت نتيجة قيام حكومات هذه الاقطار برفع اسعار السلع الأساسية وتخفيض الدعم وذلك تنفيذا لتوصيات صندوق النقد الدولي[١]!!.

ومن ناحية الاخفاق الاجتماعي تتبلور فجوة عميقة نظراً للتخلف الحاد في مجالات التقنية والتطور التكنولوجي عند البلدان العربية مما تزلزل

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

الانماط والقيم الاجتماعية ويؤدي إلى صراع حاد بين أقطاب وشرائح كل مجتمع حول القيم الصالحة للاستمرار والقيم المسببة للتخلف.

كما تظهر فرص عدم العدالة الاجتماعية المتمثلة في تفاوت توزيع الدخول والخدمات والمرافق الأساسية كالتعليم والصحة والاسكان والكهرباء بين الحضر والريف مما يحول الارياف إلى حزمة فقر مدقع.

فمعظم البلدان العربية والإسلامية تعيش تحت وطأة إخفاق مخططات التنمية وانتشار الفقر والبطالة وتدني مستوى المعيشة وسوء توزيع الثروة وتزايد مظاهر الاستفزاز الاجتماعي وانهيار قيمة العمل وتدني إنتاجيته وتدهور المرافق الحكومية والخدمات العامة وتكدس الأحياء العشوائية في المدن بفقراء المزارعين النازحين من القرى فضلا عن زيادة إعداد الخريجين من المدارس والجامعات الذين لا يجدون فرص العمل، كما تمثل تيارات الغضب والعنف أحد أسبابها رد فعل نفسي للأوضاع المتردية التي تحياها المجتمعات العربية والإسلامية[1].

أما اخفاق التنمية التربوية فيظهر بجلاء انحطاط المؤسسات والنشاطات الاكاديمية والمناهج التعليمية ووسائلها حيث تتكرس اهداف التعليم على التلقين والتكرار والحفظ دون أن تخلق رجلا مبدعا نامي العقل مفكرا مناقشا، إنها نظم تعليمية لاتساعد على تنمية التعبير الحر عن الرأي مما يعبد طريق تربية اتجاهات اللجوء للعنف.

ونظراً لغياب التخطيط التربوي السليم وفي ظل تفاوت المدخلات

---

(١) (الزميع، د.علي رؤية في الآفاق المستقبلية لتجديد الفكر الإسلامي- ندوة الفكر الإسلامي المعاصر بين الهدم والبناء يناير ١٩٩٥).

التعليمية عن مخرجاته، نشأت أزمة التعليم التي أدت إلى تهميش اعداد ضخمة من الشباب الذين لم ينالوا حظهم من التعليم أو لم ينالوا فرصهم في الحياة والعمل بعد التخرج مما لفظ التعليم اعداد لن تجد طريقها إلى الاندماج داخل دواليب الدولة والمؤسسات فاستشرت ظاهرة التبطل بين الشباب وتنامى شعور حاد بالاحباط وعدم الثقة من مجمل النظم والعمليات السياسية، وجعل هذه الفئات لقمة سائغة للانخراط في العنف.

وهناك الاخفاق التنموي الاقتصادي المتمثل في التفاوت الطبقي والحرمان الاقتصادي لبعض فئات المجتمع وهيمنة قوى المال والاعمال على كافة مناحي النمو الاقتصادي ومراكز سلطة اتخاذ القرار وعدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية وتوزيع الثروات كلها تؤثر بصورة مباشرة في انماط الانتاج والاستهلاك وتخلق أزمة تنمية.

وليس من قبيل الصدف أن نشهد فشل العديد من الانظمة العربية في أشباع الحاجات الأساسية لقطاعات كبيرة من المواطنين.

ويظهر الخلل التوزيعي الاقتصادي من مصدرين أولهما: النقص في مصادر الثروة والسلع والخدمات المادية، أي القيم المتنازع عليها بين أفراد المجتمع وهنا تبرز اهمية التنمية الاقتصادية وثانيها: هو عدم العدالة في توزيع الثروة والأشياء ذات القيمة بين مختلف طبقات المجتمع وفئاته، نظراً لعدم كفاءة السياسات التوزيعية وانحيازها لصالح فئات دون أخرى[1].

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

وقد ظهرت دراسات خلصت إلى وجود علاقات طردية بين عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية والعنف السياسي، أي كلما زادت درجة عدم المساواة زاد معدل العنف السياسي. فقد استنتج تانتر وميدلارسكي أن الحركات الثورية الناجحة خلال الفترة من عام ١٩٥٥- ١٩٦٠ وقعت في مجتمعات عرفت درجة عالية من عدم المساواة في ملكية الأرض. وانتهت دراسة أُخْرى اجراها ميلر عام ١٩٨٥ عن العلاقة بين عدم المساواة في توزيع الدخل والقهر الاجتماعي والعنف السياسي في ٥٦ دولة خلال فترتين مختلفتين (١٩٨٥-١٩٦٧) و (١٩٦٨- ١٩٧٧) إلى تأكيد العلاقة الطردية[١].

كما لوحظ أن اعمال العنف التي كانت اما على شكل اضرابات أو تظاهرات أو إحداث شغب التي مارستها قطاعات وشرائح من العمال والطلبة وبعض الجماعات الإسلامية وحتى بعض القوى اليسارية في فترة السبعينات والثمانينات كانت مرتبطة أساسا بقضية العدل الاجتماعي والاحتجاج على الفجوات الاقتصادية والاجتماعية المجحفة والمطالبة بتوزيع الثروات توزيعا عادلا. ومرجع هذه الازمة أنه كلما ساءت عملية التوزيع العادل للثروات وتضخمت التناقضات الاجتماعية والاقتصادية، ساد احباط فردي وسخط جماعي يمهد لإحداث سلسلة من بؤر توتر وصراع يهدد بالانفجار متى سنحت الفرصة.

اللافت للانتباه أن هناك علاقة تلازمية بين التنمية الاقتصادية والسياسية، فكلما تحدث تنمية اقتصادية لابد أن يرافقها تطوير مؤسساتي

---

(١) (المصدر السابق).

وسياسي تلبية للمطالب الجديدة التي برزت في فترة الازدهار الاقتصادي وتنامي الوعي في قطاعات الجماهير والمطالبة بالحقوق السياسية. هذا الاتساق لم تستوعبه الدول العربية بشكل جيد مما كان شرارة نهوض العنف حيث اتجهت بعض القوى السياسية لممارسة بعض أشكال العنف للتأثير على سلطة القرار والضغط عليها لإحداث تطوير سياسي.

ثالثاً: غياب النقد الذاتي

يبدو أن هناك الكثير من القضايا والمعتقدات والتصورات أصبحت من المسلمات والبديهيات الغير قابلة للنقض أخذت تستشري في أدبيات الفكر المعاصر، فأضحى النقد والمصارحة من الأمور المحرمة!! ولعل من المسبقات الفكرية للمتزمتين من أصالة فكرهم وكمالها لا تتيح استيعاب إمكانية مراجعة الاصول المنهجية والفقهية مادامت فوق الشبهات. يقول قاموس لاروس الصغير عام ١٩٦٦ «أن المتزمتين هم أشخاص يرفضون إصلاح عقيدتهم لكي تتأقلم مع الظروف الجديدة». ولنا أن نتصور كيف يصبح مفهوم النقد الذاتي في ظل هذه العقليات.

بل غاب عن الكثير من قضايا العمل الإسلامي التأصيل الشرعي وخاصة ظاهرة العنف التي تعتبر غائرة في الفهم الخاطئ للعمل الإسلامي فتجربة شكري مصطفى في مصر مثلًا أو عملية جهيمان في السعودية كانت تعتمد على منطلقات غير مؤصلة شرعيا وكلتا التجربتين لجأت للعنف سواء في البنى الفكرية أو السلوكية.

فقد كانت جماعة شكري تتبنى إطلاق الاجتهاد دون حدود وحرية تصحيح الحديث بلا ضوابط وكان شكري يقول في إحدى التحقيقات

أعطوني قاموسا في اللغة العربية والقرآن وصحيح البخاري ويكفي الاجتهاد وكذلك الحال بالنسبة للاجتهاد المفتوح من غير ضوابط شرعية ادت بجهيمان لتبني فكرة المهدي واخذ البيعة عند الكعبة وما حدث من مآسي عند الحرم[1].

إن من أشد الانحرافات خطورة أن تمتزج الرغبات والمصالح والطموحات الشخصية بمشجب الرأي الفقهي والشرعي مما يستحيل معها اتاحة فرص الحوار والنقاش في مجمل الافكار ناهيك عن نقدها.

أما كان عبد الله السماوي يروج لفكرة الاستحلال حيث أنه مادام المجتمع جاهليا وكافرا فبالتالي يجوز قتل الناس وسبي النساء ونهب الاموال، حيث يقول: (إن الله أباح للنبي سليمان عرش بلقيس بكفرها). وكان امير جماعة الشوقيين في مصر يقول (ان الله خلق المال لكي يستعين به المسلمون على طاعة الله، فاذا أخذ المشركون هذا المال واستعانوا به على معصية الله، وجب على المسلمين سلب هذا المال من أيدي المشركين ورده إلى أصحابه الاصليين)[2].

أن إعادة النظر في المسلمات التي تحكم سلوكنا يعتبر مطلبا ملحا وحاجة مهمة في نجاحنا مستقبلا وهذا يتطلب المزيد من النقد الذاتي لمعتقداتنا وتصوراتنا وأفكارنا وتعريضها لمطارق النقد.

رابعا: ضيق قنوات الحوار

لازالت الأطر الديمقراطية في مجتمعاتنا العربية هشة مما يقلص إمكانية

---

(١) (زكي، د. عيسى مجلة المجتمع العدد ١٠٨١).

(٢) (صحيفة القبس الكويتية ١٩٩٤/٣/٢٩).

استقرار الدولة المدنية ويفضي إلى تكريس مفاهيم أقرب للديكتاتورية والعنف. ولعل أهم وابرز الأطر الديمقراطية فتح قنوات قانونية للتعبير عن الرأي والفكر دون التعرض لهم أو إيجاد وصاية على إبداعهم، وكلما ضاقت هذه السبل نمى شعور بالظلم وعظمت مشاعر القنوط والسخط.

وقد تنشأ تبعا لذلك ظاهرة الفئات المهمشة اجتماعيا وسياسيا في ظل فقدان الاطر الديمقراطية المتاحة وادماجهم في نسيج المجتمع المدني ومايصاحبه استبعاد الاقليات أو الفئات المعارضة وحركات الرفض مما يكونوا مادة خامة للعمل السياسي العنيف، الم يكن الطلبة والعمال نموذج الفئات المهمشة التي وجدت طريقها نحو العنف والشغب متى اتيحت الفرصة لذلك ؟.

يقول الأستاذ حافظ الشيخ «إن مجرد العزل القسري للناس ومجرد إقصائهم عن مجاري الشأن العريض العام هو في حد ذاته يخلق أفضل الظروف لنشأة التطرف وهكذا فإن التطرف يزداد مع الزمن ويشتد بفعل حالة العزل والإقصاء ومع الإمعان فيها»[1].

لقد حاربت بريطانيا الجيش الجمهوري الايرلندي بكل وسائل الامن والجيش وأحدث المعدات الحربية الاستخباراتية والاعلامية لدرجة حجب بث اصوات ممثليهم، لكن اصوات قنابلهم ضلت تلعلع في بريطانيا حتى اضطرت الحكومة العمالية الجلوس على طاولة الحوار للتفاهم.

---

(١) (الشيخ، حافظ صحيفة الوطن الكويتية في ١٩٩٤/١/٩).

وأسبانيا ضلت عقودا طويلة في حرب منهكة واستنزافية مع منظمة (إيتا) التي تطالب بأنفصال أقليم الباسك (شمال غرب اسبانيا) حتى قبل الطرفان الحوار الهادئ بديلا عن الرصاص.

إن ضيق قنوات الحوار وغياب القنوات الوسيطة أو عدم فاعليتها - وهي التي تقوم بتجميع المطالب وتوصيلها وتنظيم علاقة الحاكم والمحكوم - وعدم الاعتراف بمبدأ المعارضة السياسية وغلق كل قنوات التعبير الشرعي يكون حافزا لتحريك العنف لدى فئات عريضة من المجتمع.

في الوقت ذاته فإن اغلاق منافذ الحوار يشكل حزمة تمنع القوى السياسية والاجتماعية من تنمية ذاتيتها الفكرية والاجتماعية بحيث تطرح بدائل عملية للاصلاح السياسي والنظم الفاسدة القائمة في المجتمع أو تقدم برامج لكيفية بناء السلطة وممارسة الحكم الصحيح وكيفية مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتراكمة، حيث تظل منهكة في صراع وتحدي السلطة وردود الافعال وتكتفي باعلان المعارضة والاحتجاج والرفض للنظم السياسية القائمة.

من جهة أُخْرى نرى أن الكثير من دعاة العنف والتطرف والتزمت يفتقدون لمنهجية الحوار حيث لا يتيحوا لأنفسهم محاورة الآخرين في معتقداتهم وأفكارهم لما قد تسبب التشكيك بمنطلقاتهم الفكرية ويضعف ولائهم وانتمائهم مما يدفعهم إلى الانضواء تحت مظلة العمل السري وانتهاج السبل القمعية.

أن نقد هذا الفكر من خلال الحوار يزيل اللبس ويكشف الغموض وبالتالي فإن من يقدم على تبنيه واعتناقه يكون على بينة ومن يتصدى له

ويحاربه يكون -أيضا- على بينة بحقيقته ودوافعه، فلا ينقاد شاب متحمس وراء فكر طائش بعد أن تسلط الأضواء عليه ويكشف حقيقته.

أن فتح قنوات الحوار أمر إيجابي في كلا الحالتين فهو يسحب دعاة التعصب من سراديب السرية ويضع أمامهم خيارات التفكير بصوت عالي من ناحية، ويضع فكر ومعتقدات التطرف تحت مطارق النقد والمصارحة والمكاشفة من ناحية أخرى.

خامسا: التعالي السلطوي

اثرنا أن نضيف هذه النقطة منفصلة عن النقاط السابقة برغم كونها لاتمس الدوافع الفكرية لنشأة العنف اوالنظم الداخلية للتيارات السياسية والفكرية المختلفة، ذلك أنه من الصعب حصر التطرف في الأفراد والجماعات وتناسي القابضين على الحكم بأعتبار أن التطرف والعنف هو في الغالب رد فعل. وعادة ما تكون الدولة هي المبتدئة بالعنف، فهي المؤهلة بسهولة للانزلاق إليه نظراً لضيق أفق الحاكمين وسعيهم الحثيث الحفاظ على الحكم واستغلال المكنة والقدرة التي تمنحهم الدولة في تكريس سطوتهم..

ونقصد بذلك التطرف الذي يمارسه أصحاب الدولة لإضفاء الشرعية على حكمهم بتوظيف الدين توظيفا سياسيا عندما لا تكون ثمة شرعية سياسية، انهم يلجأون إلى التعالي بالسياسة لجعل حكمهم يعلو على كل شرعية بشرية.

ولنا في التاريخ السالف أمثلة عديدة ذات دلالة هامة في تكريس التعالي السلطوي نذكر بعضها ونحيل جلها إلى دفاتر التاريخ المليئة بحبر اسود تثير الشجون وحرقة القلوب على فداحة العبث بالدين والإسلام:

* خطب زياد بن أبيه في أهل البصرة عندما قدمها عاملا عليها لمعاوية فقال " أيها الناس انا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زادة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفئ الله الذي خولنا " ليعبر عن تكريس أيدلوجية الجبر في الحكم.

* وساهم الأمويون أيضاً في تكريس أيدلوجيا الجبر طلبا للشرعية فأسبغوا على أنفسهم ألقابا تجعل وجودهم من وجود الله مثل خليفة الله في الأرض وأمين الله.. الخ وهي الألقاب التي تنهض من قبل طبقة الشعراء والقصاص وخطباء الجمعة الرسميين، بل عمدوا إلى وضع أحاديث ترفع من شأنهم وتجعل مقامهم عند الله أسمى من مقام جميع البشر وهكذا نسبوا إلى النبي ﷺ أنه قال: «الأمناء عند الله ثلاثة جبريل وانا ومعاوية» كما نسبوا إليه حديثا يقول: «اللهم علم معاوية الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب» ولما توفي معاوية عمم خلفاءه جملة ادعاءات فنسبوا إلى النبي أنه قال: «أن الله تعالى إذا استرعى عبدا رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات» وانه قال أيضاً «أن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار» وخطب هشام بن عبد الملك حين ولي الخلافة فقال: «الحمد لله الذي انقذني من النار بهذا المقام وأحضر يزيد بن عبد الملك اربعين شيخا شهدوا له أنه ماعلى الخلفاء حساب وعقاب»[1]!!.

أن السلطة والدولة بحكم امتلاكها المكنة المادية والقدرة تفضي إلى أن تكون سببا مباشرا في تكريس العنف في الأفراد والجماعات. فبالإضافة إلى

---

(١) (الجابري، محمد عابد صحيفة الشرق الأوسط العدد ٥٢٢٣ في ١٩٩٣/٣/٧).

الإضفاء الشرعي وخلق الهيبة والقدسية على سلوكيات السلطة فانها تمارس سياسات دكتاتورية من شأنها زج الجماهير قسرا للعنف من مثيل التمييز وسلب الحقوق السياسية والاجتماعية والسياسات الاقتصادية الخاطئة واضطهاد وتعذيب الشعوب وقمع الهوية الثقافية والدينية لشعب أو امة ما مما تكون سببا رئيسيا لنشأة الأصولية.

وعادة ما تبدأ السلطات بممارسة العنف من خلال اتخاذ اجراءات وقائية كما يطلق عليها من مثيل حملات الاعتقال أو المحاكمات الاستثنائية، وهذا يمكن أن يخلق ردود افعال مضادة. بل إن النظم السياسية مابرحت تفتأ تكدس مخازنها كافة الاسلحة الفتاكة والتجسسية والقمعية وتعطي اهتماما متزايدا لاجهزة ومؤسسات القمع والقهر كالجيوش وقوات الامن، وقوات الحرس الجمهوري والاستخبارات العسكرية والمدنية والمليشيات الميدانية وكانها في حرب دائمة مع «الشعب» نفسه!!.

يقول الباحث الفرنسي فرانسو بورجا (ان مايطلق عليه العنف الديني يستتر وراءه - في معظم الاحيان - العنف الذي تمارسه النظم التي تفضل أن تقدم خصومها الذين يتحدونها في صورة الشيطان، وذلك لتتجنب مواجهة نتائج الانتخابات. وعندما تغلق الانظمة - بهذه الطريقة - ابواب الوصول إلى الساحة السياسية الشرعية أمام الإسلام السياسي فهي تدفعه إلى ممارسة هذا العنف لكي تبرر لجوءها إلى القمع لحماية كيانها)[1]

---

(١) (إبراهيم، د. حيدر، ظاهرة العنف والتطرف - منتدى التنمية - اللقاء السابع عشر يناير ١٩٩٦).

يقول الكاتب مصطفى حجازي (ردود فعل السلطة عنيفة ومباشرة وتأخذ طابعا ماديا. البنية الاجتماعية التي تنتج عن هذه الوضعية جامدة متصلبة، لاتتضمن أي صمامات امان أو أي تقنية للعدوانية التي لابد أن تتراكم، ولذلك فإن هذه العدوانية لابد متفجرة في الداخل والخارج تبعا للظروف)[1].

والأدهى من ذلك انها احيانا - ومن خلال اجهزتها وعناصرها الاستخبارية - تتسلل داخل القوى الوطنية والمعارضة لتدفع تلك القوى نحو ممارسة اعمال عنف وشغب وتحدي أو تشعل فتيل الفتنة بين عناصرها أو تمارس نشاطا تخريبا مرعبا تنسبه لتلك القوى، وحينها تصبح عملية ضربها وتفتيتها أمراً مبررا وشرعيا تتبجح به أمام محطات التلفاز.

إن هناك ثمة سمات مشتركة تشترك بها اغلب النظم العربية، فهي اولا نظم انتقالية لم تستقر بعد، أي أنه لايوجد اتفاق عام داخل المجتمعات العربية حول شكل النظم السياسية ومضمونها. ومن ثم نظم تمر بعملية تغير وتبدل على مستوى ابنيتها التنظيمية والمؤسسية وعلى مستوى اسسها الاقتصادية والاجتماعية. وثانيا هي نظم تابعة، أي تتحرك في اطار التبعية لقوى خارجية أو ضمن فلك مصالحها. وهي ثالثا نظم تسلطية تقوم على احتكار السلطة فلا تسمح بتعددية سياسية حقيقية أو اطر ديمقراطية. وهي رابعا نظم محدودة الفاعلية، إذ انها تعثرت -

---

(١) (التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور بيروت معهد الانماء العربي الطبعة الخامسة ص ٢٠٣).

بدرجات مختلفة - في انجاز مهام مابعد الاستقلال[1].

هذه السمات - التي شرحناها سلفا بافراد- تخلق مناخا مواتيا لتفريخ العنف وتناميه في الجماهير بشكل مضطرد وخطير للغاية.

إن هناك فارقا شاسعا بين عنف الضحية وعنف الجلاد، فبرغم نقدنا لعنف الضحية سواءا كانت حركة أو مجموعة أو كتلة عمالية أو مهنية فإن عنف الجلاد يشكل انتهاكا صارخا يتضمن ممارسات وحشية لاتقل قسوة عن ازمنة العصور الوسطى أن لم تتجاوزها تفننا وتقنية وبشاعة.

والمفارقة الهامة في البحث أن للبشر حاجات أساسية ونفسية تساهم بشكل مباشر في صياغة حياته وشخصيته والحفاظ على كيانه وكلما انتهكت هذه الحاجيات أدى إلى الانتقاص من آدميته وأضرت بحقوقه وأصبحت الفرصة مهيأة لانتحاء الأشخاص نحو ممارسة سبل أقرب للعنف وهذه الحاجيات هي المرتبطة بالقيم التالية:

١ - نبذ كافة أشكال العنف والحاجة للامن.

٢ - الرخاء الاقتصادي

٣ - التوازن البيئي

٤ - العدل الاجتماعي

٥ - المشاركة

٦ - التسامح

ومتى ما أخلت هذه القيم في مجتمع ما كان عرضة لبروز التعصب

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

وسيادة منطق القوة!! وتبدو أن السلطة هي الأقرب لانتهاك هذه القيم لسطوتها على مكنونات السلطة وقدرتها على توفير حاجيات الناس العامة.

ولمعالجة ظاهرة التطرف والعنف هناك ثمة أولويات لابد من العمل عليها:

١ - تكريس الأصول المعرفية بمفاهيم الحرية والتعددية والانفتاح ولفت نظر المتطرفين بها.

٢ - ممارسة النقد الذاتي للتكيف مع روح العصر وملاحقة العلل والمثالب.

٣ - فتح حوار مع المتطرفين والتعاون معهم في المجالات السياسية والاجتماعية والدينية كسبيل لوقف تماهي التطرف فيهم.

٤ - يتعين الدفاع عن الحضارة في مواجهة الفرد بمعنى تكريس مفهوم المؤسساتية والعمل الجماعي المنظم لتطوير مفهوم الدولة للحماية من نزوات البشر العادية.

والسؤال: كيف يمكن تكريس التسامح في المجتمعات فذلك بحث آخر سنتطرق له في فصل لاحق.

* * *

الفصل الرابع:

لماذا اللاعنف ؟؟

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[2].

من نافل القول الحديث عن انزلاق القوى والتيارات الإسلامية في مستنقع العنف والإرهاب جعلتها ضحية القمع والتصفية وهمشت دورها ووضعتها في مصاف التيارات والحركات المنبوذة في المجتمع وهي كانت ذات يوم ما حركة طليعية وذات انطلاقة نقية يلتف حولها الملايين.

ولعل الظاهرة الاخطر في هذا الانزلاق هو الارتكاز النظري لفكر العنف والتقاط شرعيته من وحي التشريع الإسلامي ومصادره الرئيسية القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة، واعتبار العنف والإرهاب نظرية مشروعة في المنظور الإسلامي تحت خانة الجهاد في سبيل الله والدفاع عن النفس ومقارعة الطغاة والمستكبرين.

---

(١) سورة فُصِّلت، الآيتان: ٣٤ - ٣٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

لقد أعطى هذا الانزلاق فرصة ذهبية ومجانية للغرب ليمارس هوايته في النعيق والزعيق الاعلامي والتشويه المسموم للحركات الإسلامية والفكر الإسلامي بصورة تحريضية تمس احيانا حتى صلب التشريع الإسلامي.

من هنا كان لابد من تأصيل مفهوم اللاعنف في ذاكرة الفكر الإسلامي ووضع تصور حضاري ورؤية تتناغم مع الثوابت التشريعية للإسلام.

تجليات اللاعنف

ولكن السؤال العريض لماذا اللاعنف وماهي تجلياته ؟؟

١- اللاعنف أحمد عاقبة وأوصل للهدف:

إن الانتحاء نحو التسامح والعفو يحصد المكتسبات ويوصل للهدف اسرع ويقلل من فرص الأخطاء والسقطات والخسائر، يقول الباري في كتابه المبين ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

ويقول الرسول الاكرم ﷺ (ياعلي مكارم خصال الدنيا والاخرة لين الكلام والسخاء وأن تعفو عمن ظلمك).

وكان نبي الله عيسى يوصي اتباعه بقوله (أحبوا اعدائكم)

ويقول الامام علي عليه السلام (الرفق ييسر الصعاب ويسهل الاسباب).

ولو تصفحنا التاريخ لوجدنا كيف استطاع رسول الإنسانية أن يجني مكاسب باهرة حينما عفى عن كفار قريش وقادتها بعد دخوله مكة

---

(١) سورة فُصِّلت، الآية: ٣٤.

المكرمة حينما قال (اذهبوا فأنتم الطلقاء). فقد أمن شرهم واستطاع تجنيد ٣٠٠ الف مقاتل من هوزان لموقعة حنين جراء موقف العفو واستقرض من مروان بن امية (وهو وزير دفاع قريش سابقا) ٤٠٠ درهم.

لكن يعتقد الكثيرون أن العنف وسيلة استحقاقية عاجلة للوصول للهدف المرجو وانها طريقة رائدة لاعطاء درس لكل من يسلب حقوق الاخرين، كما أن العنف يعجل من نيل المكاسب. لكن في واقع الأمر لم يحدث ذلك على مر العصور بل ادى إلى انتكاسات كبيرة وانعكاسات مضاعفة.

إن الاعتقاد بأن العنف اقرب الطرق للوصول إلى الاهداف لم تؤكده تجربة تاريخية واحدة بل وجدنا العكس تماماً حيث ادى إلى انهيار الحركات الثورية العنيفة بشكل متلاحق.

ففي غضون نصف عقد لاغير أضمحلت مختلف تيارات الفكر الثوري ابتداءا من القرن الثامن عشر وفقدت صلتها بالواقع، بيد أن في دول مثل روسيا وكوبا وغيرهما من الدول الشيوعية سابقا مايزال المرء يصادف اناسا يبجلون ماركس ولينين وستالين وفي الصين شيد ضريح ضخم لرفاة ماوتسي تونغ إلا أن الارتباط بأيقونات الماضي هو تشويه شعائري أكثر من كونه تعبيرا عن عقيدة سياسية راسخة، وقد تأكدت هزيمة الفكر السياسي الراديكالي في أكثر من ١٠٠ عملية لانتخابات حرة جرت في أكثر من ٨٠ دولة خلال نصف العقد المنصرم[١].

---

(١) (طاهري، امير – وداعا ايتها الحركات الراديكالية الثورية، صحيفة الشرق الاوسط اللندنية في ١٩٩٣/٨/٢).

ومثال الثورة الإسلامية في أيران شاهد حي على مدى ضمور التطرف والعنف حيث رفعت الثورة في مهد انطلاقها شعار التصدير إلى الخارج مستغلة نجاحها الباهر لتجد نفسها بعد عقدين من الزمن منكفئة حتى على نفسها تعالج قضاياها الداخلية المتفاقمة وتفك عقدها مع كل من امتدت يدها إليه تدعمه وتحتضنه!!، حتى أن بعض كتاب العصر اطقوا على مرحلة الثورة المعاصرة بانها «مرحلة جلد الذات»!!.

وهناك اربع أقليات في الوطن العربي خاضت حروبا أهلية طويلة لنيل الانفصال والحصول على الحكم الذاتي وهم حركة الجنوب في السودان والاكراد في العراق والبوليساريو في المغرب وظفار في عمان ادت إلى أكثر من ٦٠ حدث عنف من تمرد عام وهجمات مسلحة خلال فترات العشرين سنة الماضية واهدرت مئات الملايين وبرغم ذلك لم تنجح واحدة منها حتى كتابة هذه السطور في تحقيق مناها!!.

وبملاحقة سريعة لكل الإحداث السياسية والإرهابية نجد انها لم تحقق أي قدر من التغيير في السياسات العامة فمثلا فشلت أغلب عمليات الاغتيال في أحداث أي قدر من التغيير إذ انها عززت وقوت سياسات الدولة لانها تصبح في هذه الحالة تصريحات الشخص الذي قتل من أجلها[1].

وقد أورد الدكتور حسنين توفيق في دراسة الدكتوراه «ظاهرة العنف السياسي في الوطن العربي» احصائيات دقيقة في البلدان العربية خلال الفترة ١٩٧١-١٩٨٥ حيث حصلت ٩٤ نوعاً من إحداث الشغب والتمردات و ٦٠ محاولة اغتيال و٣٦ عملية اغتيال راح ضحيتها ٥

(١) (انظر ضوء على تاريخ الاغتيالات السياسية في العالم -عمليات الاغتيال لاتؤدي إلى تغيير حقيقي، الغارديان صحيفة السياسة الكويتية العدد ٩٦٩٣ في ١٩٩٥/١١/١٨).

رؤساء دول واكثر من ٧٦ شخصا من شاغلي المناصب السياسية، اضافة إلى ٣٨ محاولة انقلابية لم تتم فعلا حيث تم كشفها قبل اوانها و ٣١ محاولة انقلاب فاشلة كل هذه الإحداث لم تنجح منها إلا نادرا، بل وصل الباحث إلى نتائج هامة:

* أن اللجوء إلى ممارسة التصفية الجسدية لبعض النخب الحاكمة يعكس عجز القوى المعارضة عن المواجهة السافرة للنظام، ومن ثم تتخذ هذه العمليات ادوات لانهاكه واظهاره بمظهر العاجز.

* أن المحاولات الانقلابية دفعت النظم اضفاء طابع مدني على مؤسسات وسياسات واشخاص النظام بحيث ظهر نمط من النظم المختلطة (العسكرية -المدنية) لتنجح في تثبيت نفسها اكثر.

* نجاح الكثير من النظم في تطوير آليات من شأنها عرقلة حدوث انقلابات، منها خلق توازنات داخل القوات المسلحة وتأسيس مؤسسات امنية مختلفة كالحرس الجمهوري والامن المركزي والحرس الوطني وسرايا الدفاع ومليشيات الحزب لتحييد الجيش، ناهيك عن عمليات التصفية والاعدامات التي تطال المخططين واتباعهم والمشتبه بهم، اضافة إلى تطوير اجهزة الرقابة والتنصت والضبط.

* تدخل بعض القوى الخارجية للقضاء على المحاولات الانقلابية التي تحدث في اقطار معينة فتدخلت مصر أكثر من مرة في السودان، وايران في عمان ودول الغرب في مواجهات عسكرية متعددة[1].

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢).

إن هذه النتائج الهامة تؤكد أن العنف عواقبه أن لم تكن وخيمة ستكون فاشلة على أغلب الظن.

٢- العنف يفقدنا التوازن:

يقول رسول الله ﷺ (ان الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ولانزع من شيء إلا شانه).

لاشك أن التفكير العنيف والسلوك المتصلب يفقد العاملين في الساحة الإسلامية اتزانهم الاجتماعي والديني والفكري والسياسي حيث أنه:

* يجلب العداوات والانفعالات المنبوذة والصراعات الداخلية.
* يقتل مناخ الابداع والتقدم.
* يضعف ثقة الجماهير بالمتنازعين ويشككون في سلامة نواياهم.
* يهدر الطاقات والقدرات حيث ستصرف كل جهة جهودها ووقتها وتفكيرها ونشاطها ضد الآخر وما يستتبعه من صرف دعائي باهض.

وبطبيعة الحال فإن العنف يتيح فرصة سانحة للعدو للتكالب والتلاعب بمقدرات الحركة الإسلامية ويجعله مطية الشد والجذب حسب اهواء العدو حتى يضحى لعبة يرسم استراتيجيتها العدو نفسه.

ولنا أن نستشهد بمثال واقعي، ففي مصر استطاعت السلطة أن تجذب الإسلاميين للعنف وتقوم ببعض العمليات لتتهم الحركة بها ولعل تفجير مقهى ميدان التحرير بالقاهرة عام ١٩٩٣ ابرز شاهد حينما انكشفت المؤامرة واتضح أن الحادث مفتعل وأن وراءه ايدي اسرائيلية، رغم أن وسائل الاعلام انجرفت لاتهام الإسلاميين والقاء التهم وراحت تحلل

الحادث بطريقة دراماتيكية غريبة. فقد قيل أن منقبة دخلت المقهى وتركت حقيبة متفجرات فيها وروايات أُخْرى عجيبة!!.

إن اجواء التسخين التي تسود بعد اثارة غبار العنف والإرهاب تفتح الباب على مصراعيه لاستغلال الاجواء الغائمة والنكث في صدر الحركة الإسلامية.

بل إن بعض الانظمة العربية عملت على تحقيق مفهوم (خلق الصراعات المتوازنة) حيث تتجه إلى توظيف بعض القوى سياسيا لضرب وتحجيم القوى الأخرى من أجل انهاك الجميع والتحكم بخيوط اللعبة السياسية.

واحيانا تقوم بعض القوى باستغلال غضبة فئات عديدة لتكون شرارة العنف في المجتمع فمثلا كان الفلاحين قوة ثورية استغلتها قوى الجيش وعمال الحضر في مجتمعات مثل الصين وكوبا والمكسيك وفيتنام لدفعها ممارسة العنف وزجها في محرقة تكون هي في موضع آمن تأمر وتنهي وتنظم!!.

٣- العنف = ضياع المبدأ

في بطون تاريخنا عبرة هامة لازالت تتكرر وتستنسخ كل حين متمثلة في أضمحلال كل فرق التطرف والمغالاة امثال القرامطة والخوارج والباطنية والغلاة حيث تراجعت إلى حد كبير وانكفئت على نفسها، بل لم يبق في التاريخ رجال العنف وقادة الدم والإرهاب حتى راح التاريخ يلعنهم في طي صفحاته.

لكن بقي من امن بالاعتدال والتسامح والعقلانية يزهو، بقي القرآن

الكريم الذي راح يردد بصوت رقيق ونغمة رائقة إلى أعدائه ومناوئيه فيصفهم بانهم اخوة ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[1]، بل إن العنف يحرم المسلم من القدرة على التصحيح فيعجز عن مراجعة نفسه واعماله وتاريخه مما يجعله محتفظا بعوامل اخفاقه وليس لديه القدرة على مواجهة اخطائه.

والمتبصر بأمعان يرى أن التنظيمات المتطرفة قد تنشأ عن حسن نية وعن قناعة مخلصة، لكن بعدها عن الواقعية يبعد بها رويدا رويدا عن الهدف الذي تنشده وقامت من اجله ويصبح الابقاء على كيانها هدفها الغالي. حيث تسلك مختلف الطرق المنحرفة لتقي نفسها من الانهيار وقد تنتهي بها الاساليب الشاذة لتغدو العوبة بيد قوى أعظم منها وربما كانت هذه القوى من أعدائها السابقين[2].

إن المعارضة في كثير من الاحيان انزلقت إلى حروب أهلية وتمردات وهجمات مسلحة ادت بالسلطة إلى استعداء الشعب ضدها وتدمير شعبيتها التي بنتها سنين طويلة.

والامثلة على ذلك كثيرة فجماعة حسن الصباح «الفدائيون» ابتدأت حركة دينية متطرفة برجال مخلصين حتى أمست الحركة آلة بيد بعض الحكام لاغتيال اعدائهم. والحركات الفلسطينية مرت بمخاضات عديدة في فصائلها التي غرقت في مستنقعات مصلحية فتارة تعدم رفيقا لها وتارة أُخْرى تهاجم الابرياء وتقتل وتفتك بالنساء والاطفال بدعوى الدفاع عن القضية!!.

---

(١) سورة الأعراف ٦٥/٧.

(٢) (رائد، جعفر التطرف والتطرف المضاد لايمثلان حضارتنا صحيفة الشرق الاوسط اللندنية العدد ٥٣٣٤ في ٦/ ١٩٩٣/٧).

ومثال منظمة مجاهدي خلق الايرانية التي حاولت الدمج بين الماركسية والإسلام عاشت تناقضات عجيبة، فقد قامت في عهد الشاه بأغتيال بعض المستشارين العسكريين الامريكان ولكنها اليوم ترمي بنفسها في احضان الامريكان ليسمحوا لزعيمهم التنقل من العراق إلى امريكا ليستقر بها.

وقد خاض هذا التنظيم حرب ايلول ١٩٧٠ إلى جانب بعض الفصائل الفلسطينية في العاصمة الاردنية ووقف في ابان الثورة إلى جانب بني صدر ذوي النزعة المعادية لتلك الفصائل ثم هرب زعيمه مع بني صدر إلى باريس وتزوج ابنته ولكنه مالبث أن انفصل عنه وأعلن العداء له وطلق ابنته، ثم راح ينضم للعراق في حربه مع ابناء جلدته ومارس خطيئة فادحة في مشاركته مع النظام العراقي في مهاجمة الكويت!!! في حرب لا نافة له فيها ولاجمل.

انه في واقع الأمر نسي مبدأه وضاع في لهوات اهدافه فهو كسائر التنظيمات المتطرفة كلما حاول الخروج من المستنقع الذي سقط فيه يزداد غوصا!!.

وفي تاريخنا الغابر شواهد أكثر وضوحا حيث يذكر التاريخ أن الخوارج هم اول من رفع شعارات تبهر العيون لكنه امتشق راية التطرف ومابرح يفتأ يقتل الناس ويفتك بالنساء والشيوخ والاطفال ويغرق المسلمين في حروب لاهوادة فيها راح ضحيتها الالاف وما واقعة النهروان إلا كأحد الامثلة.

وكذلك حركة القرامطة في العهد العباسي حيث كانت متأثرة بأفكار متطرفة غير منسجمة مع واقع المجتمع الإسلامي التقليدي وقد حققوا بعض الانتصارات في مستهل قيامهم وانشأوا دويلة في الاحساء وأغاروا على مكة المكرمة في بحبوحة الحج وقتلوا وسبوا الكثيرين ونقلوا معهم

الحجر الاسود واحتفظوا بها زهاء ثلاثين عاما وكانت عاقبتهم الهزيمة والخسران وعودة الحجر إلى مكانه وزالت دولتهم.

من جانب اخر فإن العنف يشتت بوصلة الاهتمامات حيث لحظنا كيف أن القوى السياسية والاجتماعية انشغلت بالعنف والرد بالمثل وتناست طرح بدائل وخيارات عملية ومعالجات لمشاكل المجتمع وما أكثرها، حتى أن شعار بعض الحركات الإسلامية المتمثل في تطبيق الشريعة الإسلامية وبناء مجتمع مسلم لم تكن من الواقعية بمكان إذ كان مجرد شعار تخديري يرمي من وراءه جلب الانظار وحصد الاتباع، حيث يلحظ تخبطا وغموضا وعدم فاعلية في مجمل نشاطاتها.

٤ - العنف - نقيض الفطرة:

إذا كان الاختلاف بين البشر أمراً طبيعيا وصحيا على مدى الدهور فكيف يصبح العنف وهو ادعاء الحق المطلق لنفسك أمراً صحيا!! اليس في ذلك خلاف المنطق والعقل، إذ أنه تناقض عريض غير مقبول إطلاقا.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1]

ويقول أيضاً: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

إن من أمس ضرورات الشخصية الفردية أن تتجانس اطروحاته مع سلوكياته حتى يمكنه تبني وهضم الافكار بعقلانية بالغة. ومن يدعي أن العنف مسلك عقلاني كمن يغتال العقل ورشده ثم يمشي في جنازته!!

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.

وإلا فكيف نستطيع أن نفسر اختلاف الطبائع وتفاوت العادات والاذواق، وهي ممارسة يومية وإحداث دقائقية تحدث في حياتنا، ثم نطالب بجبر الجميع في خانة رأي واحد ولاغير!!.

٥- العنف استرسال في جملة من الأخطاء:

إن نشوء الفكر الطائفي والحزبي والقبلي والعنصري يعتبر ولادة نشاز لفكر التطرف والعنف حيث المسبقات الفكرية حاشدة في تدبيج مطلقية مفاهيم الطائفة والقبيلة والحزب، وكلما تكرس عنف فكري تكرس مفهوم فكري مغلوط، كما أن التعاطي بالعنف سيستتبعه بالضرورة نزوح نحو الإسقاطات والسلوكيات المتطفلة في العمل الإسلامي.

يقول جودت سعيد: أن سنة الرسول ﷺ في منع العنف قبل إن يصل إلى الحكم بغير عنف هي التي تقطع تسلسل الخطأ بحيث لا يسوغ ازالة الخطأ بالخطأ. أن الذين لايهضمون هذه الافكار سيفاجئون بأن الحكم الذي كانوا يظنون أنه شفاء من كل داء، إنما هو مرآة تعكس سيئات المجتمع على اتم بشاعته وعنفوانه سيتبين لهم أن هذا الأسلوب الذي استخدموه مع مخالفيهم في الرأي سيرجع اليهم، لهذا السبب نهى القرآن عن العنف بقوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1][2].

إن بعض الحركات الإسلامية سمحت لنفسها أن تتجاوز كل السنن الكونية والمعادلات البشرية من أجل الوصول للسلطة أو تحقيق القوة ولو كان الثمن هلاكها وهلاك الشعب وانهيار البلد.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٢) (مذهب ابن ادم الاول ص ٥٨).

وعلى مستوى الدول نجد أن لهث الانظمة نحو برامج تسليح ضخمة لتأمين نفسها من الانهيار من شأنه أن يخلق مشاكل وتحديات مستقبلية كثيرة حيث تصبح الجيوش وقوى الاستخبارات والامن الخاص ذات تقانة عالية أكثر تطورا من المجتمعات، مما يجعلها تتطلع إلى دور أكبر في ادارة تلك المجتمعات وحكمها أو العمل على تحقيق اغراض تسلطية متعددة.

ولو تتبعنا خسائر الإرهاب والعنف المتسبب من قبل الانظمة أو الجماعات المناهضة في المنطقة العربية نجد انها ادت الى:

* تضاعف مصاريف الامن والانفاق على الجيوش وقوى الشرطة.
* عمت الفوضى والاضطراب والغليان وادت إلى ضرب الاستقرار السياسي.
* نزوح رؤوس الاموال المحلية والاجنبية والاضرار بالسياحة.
* زيادة تسلط الانظمة على الشعوب واستمرار حالات الطوارئ.
* هيمنة الإرهاب على الحياة السياسية والفكرية والفنية وتعمق ميول العنف والاجرام في مجمل الحياة المدنية.
* تشوه صورة العرب والمسلمين في مختلف أجهزة الاعلام الدولية.
* سقوط ضحايا لاتحصى من الابرياء.

فهل كل ذلك يستحق من أجل العنف!!.

٦ - اللاعنف.. سلام المعركة الحضارية:

لاشك أن المعركة التي تخوضها الحركة الإسلامية معركة حضارية متمثلة في التحدي الشامل مع القوى المناوئة للإسلام وهذا يتطلب بالتأكيد مزيدا من الوعي والحيطة والحذر من المكائد ومزيدا من النشاط

والفاعلية والحيوية، ومن الخطأ الفاحش حصر هذه المعركة في نطاق العنف ونتجاهل وسائل التصدي كما نتجاهل المهام الحضارية الملقاة على عاتقنا في هذه المعركة.

إن لهذه المعركة متطلباتها وادواتها، ولعل أهم متطلباتها أن يتصف رجال المرحلة بالحكمة والروية واستيعاب الواقع والوعي الشديد، ومن الفداحة بمكان أن تتلوث الحركة بالعنف وتنسى متطلبات المرحلة.

٧- للعنف آثار سائبة:

بمعنى أن اثار العنف لاتقف عند من استعملها بل كل من يتصل بها يصيبه الاذى، إنه إسقاط وتوريط لاخرين بعيدين عن القضية، بينما التزام اللاعنف والقول الحق والهادئ يخلق منافع عامة مشتركة حيث تعم فائدتها الطرفين المتخاصمين والحياديين لأن الذي تنازعه أن تراجع عن رأيه لايشعر بالهزيمة والضعة والارغام بل يشعر بفضيلة انكشاف الحق وهكذا المنتصر لاتعلوه نشوة القوة المرغمة، فيما مضارها لايتحملها إلا من تبناها.

وفي هذا الاطار نذكر واقعة مدبرة حدثت للاخوان المسلمين وكيف أدت إلى الايقاع بهم وتوريط مجموعة من اعوانهم وطرق الدسيسة التي تحدث للحركات التي تتبنى التطرف والعنف.

يذكر سيد قطب رحمه الله في مذكراته «أنه اوحى اليّ بعض الأفراد بفكرة انساق إليها ببله وصار يروّج لها وهي الخروج من السجون بالقوة، وعرض هذا على بعض القيادات الاخوانية فرفضته بشدة وعنف وشتم ونهر هذا الإنسان، ثم علم بهذا معروف الحضري - وكان قائدا

في الجيش وأبلى في حرب فلسطين بلاءا حسنا وكان معتقلا في السجن مع الاخوان - فقال لي بعصبية: هذه دسيسة لتدبير مذبحة كبرى للاخوان في السجون وفي الخارج.

ثم يقول سيد قطب: وحوكمت وذهبت إلى سجن ليمان طرة وذهبت إلى مصلحة السجن لمرضي، إذا بقائد كتيبة الليمان في سجن طرة وهو الصاغ يزورني على غير معرفة سابقة ويحدثني في ضرورة تخليص الاخوان الذين في السجون لانهم هكذا يستهلكون تماماً وخصوصا هؤلاء الذي يقطعون الاحجار في جبل طرة مع كبار المجرمين، ومع معرفتي أن هذا الضابط لم يكن في يوم من الايام من الاخوان. ثم مع الحاحه وقوله أنه كقائد للكتيبة يضع نفسه واسلحة الكتيبة تحت تصرفنا لأنه لم يعد يطيق منظر طابور الاخوان في الجبل، تذكرت خطط الدسائس المتكررة وذكرت قول معروف الحضري: دي دسيسة لتدبير مذبحة كبرى للاخوان في السجون والذين في الخارج جميعا، وقلت له: احنا متشكرين على عواطفك ولكن نحن نرى إننا أدينا واجبنا وانتهت مهمتنا بدخول السجن ولم نعد نستطيع عمل شيء فمن أراد أن يعمل من غيرنا فليعمل، فأنقطعت زيارته ثم وبعد ذلك بأيام اتهم الاخوان في السجن بأنهم يعصون الاوامر ودخلت كتيبة السجن بأسلحتها لتطلق النار على الاخوان في الزنازين بدون ذنب ويقتل منهم أكثر من عشرين فردا من الاخوان في مجزرة رهيبة عدا الجرحى!!»[1].

وقد نشرت مجلة اللوموند الفرنسية مقالا روى فيه شرطي جزائري لاجئ مساهمته في أدوار تخريبية كانت نتائجه مرعبة تنسب لجماعات

---

(١) (نقلها الواعي، د. توفيق مجلة المجتمع الكويتية العدد ١١٩٠ في ٥/٣/ ١٩٩٦).

العنف وجاء في المقال أن رؤساءه طلبوا منه إطلاق النار ليلا على أي شبح لايكشف عن هويته. إلا أنه كان يعرف أن معظم من كانت النار تستهدفهم كانوا شبانا تركوا الاسرة لاخوتهم حتى يناموا بالتناوب ثلاث ساعات، وهم يدخنون في مداخل البنايات[1]!!.

إن النزوح نحو العنف يصبح مطية للتلاعب بمصائر مريديه واهدافهم، وبالتالي يفتح شهية السلطات لممارسة هواية التنكيل وتقليم أظافر كل من له علاقة بالموضوع، ويكون ذريعة لاتهام كائنا من كان لمجرد أنه فكر أو نوى أو حتى حلم بانتماءه لذلك التيار!!.

٨ - اللاعنف والاتزان الفكري:

اللاعنف يتيح لأفراد الحركة الإسلامية المزيد من الوضوح وقوة الطرح وعدم الشعور بالحرج من افاضة الفكرة وتناولها وبالتالي يمتاز رجال الحركة بالشجاعة وقوة المنطق والاتزان الفكري والنفسي والسلوكي في حين يظهر المتطرف اضطرابا في الفكر والسلوك خوفاً من انكشاف العمل.

إن تحقيق الثبات العملي سيتيح اجواءا صحية قائمة على قوة المنطق والفكر لامنطق القوة كما أنه سيخلق مناخا مليئا بتبادل الاراء وتداول وجهات النظر بغير المسدس والبندقية والقنابل، والشاهد سيكون التاريخ وسنة الله في هذا الكون.

من ناحية أُخْرى فإن اللاعنف يتيح تجسير العلاقة بشكل متواصل مع الجماهير ويحقق مكاسب متجددة يقول الامام الصادق عليه السلام (من كان

---

(١) (صحيفة القبس الكويتية ١٢/٣/١٩٩٥).

رفيقا في أمره نال مايريد من الناس).

أما العنف فإنه يجمد عمل الفكرة ويقتل الابداع ويخلق اجواءا من الجمود المنهجي المتراكم.

٩- اللاعنف يوقظ روح الابداع:

إن اللاعنف ينهض روح الاجتهاد والاستيقاظ الفكري ويبعد الإنسان عن التقليدية والتحجر ذلك أن الرفق يبعث على خلق منهجية عقلانية موضوعية تتناغم مع نهضة البشر وتكاملهم. يقول الامام علي عليه السلام (الرفق رأس الحكمة). ويقول ايضا لولده الحسين عليه السلام (يا بني رأس العلم الرفق وآفته الخرق).

١٠- تجريد المخالف من حججه:

إن اللاعنف يكشف حقيقة من يحمل العداوة والبغضاء للطرف المقابل ويحاول التستر ورائها، فباللاعنف يرفع الستار ويكشف حقيقة العدوانيين والطغاة، أن الاكتفاء بالدعوة إلى الله تظهر حقيقتهم بحيث لايستطيعوا القول إننا نريد قتل المسلمين مثلًا لانهم يريدون قتلنا وانما نضطرهم ليقولوا إننا نفعل ذلك لانهم يبتغون نشر الدين وتبليغه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1]

يقول الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة (اول عوض الحليم من حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل).

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

١١ - اللاعنف مكسب جماهيري:

أن اللاعنف يستخلص النماذج البشرية الفاضلة لتنضم إلى صف الحق والسير في ركبه، خاصة إذا كان الخطاب الإسلامي خطابا رقيقا متزنا يخاطب فيه الضمير قبل إن يلوح بالعصا، اضافة إلى أن هذا موقف يساعد على تحرير صفوف الخصم من المغررين به، إذ أن كثيرا من المضللين يستمر أنتماءه في خط مناوئ لعدم وضوح الصراع ومتى ما انكشفت له خيوط اللعبة واستوعب خلفيات الافكار تنحى جانبا واختار العقلانية بالتأكيد.

إن الاحتماء بالعنف في ضمير البشر يخلق اناسا يمقتون الاخرين ايا كانوا لمجرد أنه «آخر»، حيث يغيب في داخلهم الاحساس بالجمال والحرية والعدل، ويغلب التحزب وتسييد العصبية. أن روح الكراهية في نفس الفرد تنزع أي شكل من أشكال حساسية استشعار روح الناس من المضطهدين والمحرومين فيحاول أن يستنسخ المشهد على الطرف المقابل، حتى تراه نادرا مايبتسم!!. لكن المتسامح يمتلك مستلزمات العطاء والاريحية والتنفس مع مشاعر واحاسيس الاخرين وهو مكسب كبير في صفوف الفئات العاملة في الساحة.

١٢- العنف... صفقة خاسرة:

لاشك أن العنف عمل غير شرعي يسبب جملة معضلات ولكي نستطيع تبرير ممارسة العنف لابد من توافر شرطين أساسيين:

* أن لاتكون النتائج المتوخاة قابلة لأن تتحقق بالوسائل المشروعة.
* أن يكون ممكنا أن المساوئ التي يتعين ازالتها تفوق حجمها عن تلك التي تنتج عن التمرد.

ويبدو لنا أن ايا من هذين الشرطين لايتوفران في الوقت الحاضر.

فالنتائج المتوخاة قابلة للتحقق عبر الوسائل المشروعة بشئ من الصبر والدهاء والحذق السياسي وبشئ من السمو الفكري للقادة السياسيين بدلًا من الاتجاه نحو سبل الإرهاب لأنه سيسبب بطبيعة الحال ضررا يضاهي مايسببه بالوسائل المشروعة.

كما إننا على يقين من أن ارتفاع وتيرة العنف سيفضي إلى مطالبة الناس بتعزيز قوة الشرطة واعطائها صلاحيات أكثر وتغلغل رجال الامن بين الناس وازدياد حالة اللاأمن واللا استقرار وقد اثبتت التجارب التاريخية أن العنف يؤدي لتمكن السلطة أكثر في موقعها.

من أين نبدأ؟

ولكن ماهي السبل القويمة لكي يمارس العاملين حياتهم واساليبهم في الساحة بوسائل متسامحة وغير متطرفة ؟؟

هناك ثمة مناقبيات أخلاقية لابد من تكريسها بين العاملين ابرزها:

اولا: لا لعنف الممارسة والعمل:

يقول تعالى في محكم كتابه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[1].

ويقول الامام علي عليه السلام: ألة الرياسة سعة الصدر.

إن منطلقات العمل لابد أن تتميز بالتسامح وسعة الصدر واجتناب

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

ممارسة العنف بشتى صوره سواءا داخل الاطر التنظيمية في الحركات أو خارجها مع الاطراف المحيطة بالعمل.

ففي وصية كتب فيها الامام علي لعماله يقول (انطلقوا على تقوى الله وحده لاشريك له ولاتروعن مسلما ولا تجتازن عليه كارها ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، ثم امضي اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ولاتخرج (تبخل) بالتحية اليهم. ثم يضيف: واياك وأن تضرب مسلما أو يهوديا أو نصرانيا في درهم خراج أو تبيع دابة عمل في درهم فأنما امرنا أن نأخذ منهم بالعفو).

ويقول الامام الصادق عليه السلام (كونوا دعاة لنا بغير السنتكم).

وتعالوا معا لنقرأ ايات من ذكر الله الحكيم وكيف يوجه سبحانه المؤمنين للتعامل مع الاخرين إذ يقول:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[1].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٨.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٤.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[1].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[2].

ثانيا: لا لعنف اللسان:

كثيرون يظنون أن العنف مجرد ممارسة دون مراعاة الأخلاقيات العامة وهو خطأ فاحش فالمنهج الإسلامي يعتمد على رفض عنف اللسان أو التجرأ بالسباب والشتم والنميمة أو التشهير واستغلال الدين غطاءا لممارسات غير مشروعة، يقول الباري عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3]، ويقول أيضاً: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4].

لذلك كانت من الضوابط الشرعية عدم جواز الطعن والتجريح للمخالف، فقد نهى الامام علي عليه السلام أصحابه عن سب أهل الشام ايام حرب صفين قائلا لهم: (اني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم اياهم: اللهم احقن دمائنا ودمائهم وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به)[5].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.
(٤) سورة فُصِّلَت، الآية: ٣٤.
(٥) (نهج البلاغة - الامام علي عليه السلام شرح محمد عبدة ج٢ ص٤٦٩، ط الرابعة ١٩٨٩ بيروت - دار البلاغة).

كما يحرم استخدام الغيبة والنميمة والكذب وقول الزور والبهتان ضد المخالف لك في المنهج أو الموقف السياسي، أو الرأي العلمي والفقهي، حيث يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ﴾[1].

وكذلك من الضوابط الشرعية عدم جواز تكفير من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وأن اختلفت واياه في رأي أو موقف أو منهج أو تصور أو معتقد أو مذهب[2].

إن عنف اللسان لايقل خطورة عن عنف الافعال والاعمال فهو يصادر أي حوار عقلاني، ويشوه أي تبادل فكري فاتهامات التخوين والتكفير التي تطلق جزافا لاتحرمنا فقط من غنى الاجتهاد والاختلاف ولكنها تكون عادة مقدمة نفسية وذهنية للجوء للعنف الجسدي والمادي، فعنف اللسان تعبير صارخ عن نفي الآخر وعدم الاعتراف باحقيته في التعبير الحر والتفكير ومن ثم عدم احقيته في الوجود والحياة.

ثالثا: لا لعنف التفكير:

من الضروري أن تنطلق منطلقاتنا الفكرية من أساس التسامح والعدالة واللاعنف وترتكز على حسن الظن والهداية وتمني الخير للجميع وتقوم

---

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ١١ - ١٢.

(٢) (اليوسف، عبد الله شرعية الاختلاف - دار الصفوة بيروت ١٩٩٦).

المبادئ والقيم التي نتلبسها على خصيصة العفو والرحمة والصفح وهذا يتطلب قدرا كبيراً من الوعي والحنكة والحكمة. يقول الامام علي عليه السلام (المسلمون اما اكبر منك سنا فاجعلهم بمنزلة ابيك، أو أصغر منك سنا فاجعلهم بمنزلة ابنك، أو مساوون معك في العمر فاجعلهم بمنزلة اخيك، فبر اباك وواس اخاك وارحم ابنك).

إن التفكير المنطلق من القلب والعقل لابد أن يتجنب أي انتحاء نحو الظاهرة الشاذة للعنف ومن الضروري التعود على التفكير بعدم العنف ففي القرآن الكريم يستبق الباري الرسول صلى الله عليه وآله لكي يثير فيه نوازع الرحمة والتسامح واللاعنف ويجعلها مقدمة نجاح الدعوة الإسلامية من خلال التفكير بعدم العنف فيقول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[1].

إن التطرف يبدأ بالعقل ثم ينتقل إلى السلوك والحروب تنطلق من ادمغة البشر قبل إن تتحول إلى ميدان المعارك اما قيل في المثل الانجليزي (الحرب تبدأ في عقول الناس) Wars start in People Minds.

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الفصل الخامس:

هل اللاعنف ثقافة انهزامية ؟ ؟

اولا: اللاعنف وترهل الحركة:

يبدو أن أحدى ابرز ملامح تغلغل العنف في ضمير وفكر الحركات هي المخاوف المترتبة على اصابتها بالترهل والضعة وفقدان روح الهمة والمثابرة والثورية المطلوبة في أفراد الحركة مما قد يضعها في مصاف الحركات الانهزامية التي تتلبس فكرا مصلحيا انتهازيا أو ترتدي عباءة التبرير.

هذه المخاوف أضحت علامة على اعتناق الحركة الإسلامية فكر العنف واستحياءها من اعادة بلورة وعجن المفاهيم ضمن مناهجها الصحيحة. ولعل المخاوف تبرز أكثر عندما تفقد الحركة بعض عناصرها الفاعلة بمجرد التحاقها بفكر اللاعنف بذريعة هروبها من المواجهة واعتناقها فكرا استسلاميا متخاذلا..

كما أن للظروف السياسية المحيطة بالحركة أثرا فاعلا في صياغة فكر العنف في جسد الحركة فمظاهر فقدان الحريات والكبت السياسي والإسقاط المتعمد في واقع الجماهير والتشويه المعلن والعزل القسري عن الناس، اضافة إلى ممارسة كافة السبل لارهاق الحركة واقصائها من مثيل إعتقال نشطائها وقادتها وممارسة اساليب التعذيب والقهر والسجن

والصاق تهم مزيفة، كل ذلك دفع الحركة الإسلامية -قسرا- للسقوط في شراك المواجهة مع السلطة وكرس من مفاهيم العنف السياسي والفكري والعقيدي في ثقافة الحركات.

وهنا يبرز تساؤل عريض هو كيف تخرج الحركة من هذا المستنقع وكيف تعالج المخاوف الانفة الذكر ؟؟.

وهل اللاعنف يمثل قوة رصينة تستطيع الحركة أن تتحصن به فيضيف إلى رصيدها قوة يجنبها الترهل وبالتالي تكون بديلا ناجحا عن الاساليب الأخرى للوصول إلى الاهداف المنشودة ؟.

للاجابة على هذا الاستفسار هنالك جملة نقاط نذكر منها:

١ - تعتمد الحركات -كل الحركات- على ثلاث منطلقات لبناء كادرها ونشطائها والحفاظ عليهم وبناء الثورية في نفوسهم وهي:

* تجاوز الذات بمعنى امتلاك الشجاعة العالية لبناء كيان إسلامي على انقاض الكيان الجاهلي، وتجاوز الذات يعني بناء رجال مستعدين للمغامرة والتضحية وقت المحنة.
* تجاوز المشاكل بمعنى امتلاك روح وهمة عالية وارادة فولاذية لكسر المشاكل وتسلق جدرانها دون كلل أو ملل.
* التفوق على العدو في الأسلوب والقوة وطريقة العمل والتقدم عليه كما وكيفيا وهذا ما يدفع الحركة إلى امتلاك قوة تسليحية وأمنية كبيرة لممارسة هذه الشعائر الثورية.

ولكن كما يبدو فإن منهجية العمل هي التي تحدد معيار التسلق على العوامل انفة الذكر، ومتى ماكانت الحركة متمكنة من عملية النهوض

الحضاري وملتصقة بالفكر النهضوي فإن تلك العوامل ستكون سهلة المنال مع ارساء اللاعنف في العمل..

بل إن فكر اللاعنف يتيح مجالا اوسع لترسيخ تلك المبادئ وبقراءة عاجلة لتلك النصوص الدينية سنجد تأكيدا مطلقا للمعاني السابقة:

- ففي نطاق تجاوز الذات قال رسول الله ﷺ (الرفق رأس الحكمة اللهم من ولي شيئاً من امور امتي فرفق بهم فأرفق به ومن شق عليهم فأشقق عليه).

وقال امير المؤمنين عليه السلام (ليكن شيمتك الرفق فمن كثر خرقه قلّ عقله) وقال ايضا (لسان الجهل الخرق)

إن بناء الحكمة والعلمية والعقلانية في انصار الحركة هو قمة الشجاعة وهو خير من بناء الفوضوية والثورية المفرطة التي لاتمت للتعقل بصلة.

- وفي نطاق تجاوز المشاكل فإن اللاعنف يتيح قدرة هائلة على العمل المتزن ويسمح لمزيد من التعقل والتفكير الهادئ لطبخ القرار بصورة حكيمة دون أن تكون تحت تأثير الفعل ورد الفعل أو تحت مؤثرات السلطة في جرها لمستنقعات الارهاب.

يقول امير المؤمنين عليه السلام (الرفق ييسر الصعاب ويسهل الاسباب)

ويقول الامام الصادق عليه السلام (ما أرتج أمر واحجم عليه الرأي وأعيت به الحيل إلا كان الرفق مفتاحه).

- وفي مجال التفوق على العدو فإن على الحركة أن تستبق الزمن في

---

(١) (الشيرازي، محمد مهدي - الصياغة الجديدة ص ٥٩٨).

التفوق العلمي والتكنولوجي والميداني من خلال التحصن بالعلم والاستعانة بالتطورات التكنولوجية لتحقيق الاهداف مما يجعلها قوة رائدة قادرة على مجاراة الإحداث في حين أن التسلح والهروب خلف القوة العسكرية يعرضها لضربة شرسة في حال اكتشافها وقد يقصيها من الساحة في الوقت الذي يمثل هذا التوجه استخفافا وسذاجة في العمل، إلا يعتبر مقارعة السلطة بالتسلح غاية في البساطة في فهم الواقع!!.

واللاعنف يفتح ابواب التحصن العلمي والتفوق النهضوي ويستقطب رجالا أكثر نضجا وتعقلا.

يقول امير المؤمنين عليه السلام لولده الحسين عليه السلام (يابني رأس العلم الرفق وأفته الخرق)

ويقول ابو جعفر عليه السلام (ان الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لايعطي على العنف)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله (ان الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ولانزع من شيء إلا شانه)

ويقول ابو عبد الله عليه السلام (من كان رفيقا في أمره نال مايريد من الناس).

إن الوصول للاهداف المنشودة تكون أكثر فعالية في نطاق اللاعنف.

٢ - دعونا نفرق بين مصطلحين هما الثورية والعنف حيث أن هناك ربطا قسريا بين المنحنيين مما قد يشوه الفكرتان ويخلق اضطرابا معرفيا، فإن كان يقصد بالثورية امتلاك أفراد الحركة للهمة والتضحية والمثابرة والتفاني في العمل فهو مطلوب في كل وقت وزمان، ولكن دعونا

نطلق على الثورية مصطلح النهضوية حتى نبعد المصطلح من شبهات العنف المثارة حوله، وسبب ذلك إننا نؤمن بضرورة انهاض وتيرة التفاني والتضحية في المؤمنين دون الحاجة لاستعمال العنف، فالثورية للاسف ارتبطت بمفهوم العنف وهو مصطلح شيوعي الاصل وأصبح دارجا في الفكر الإسلامي في زمننا المعاصر حيث أخذت الكتابات تستخدم عبارة الثورة والثورية بشكل مفرط لدرجة أنه اعيد كتابة التاريخ ضمن هذه المفاهيم فنجد أنه كتب (ثورة زيد بن علي وثورة المختار) برغم انها كانت تكتب سابقا بخروج زيد بن علي وخروج المختار. كما أن مصطلح الثورية تعني تغيير نظام الحكم بالقوة تغييرا جذريا كما نلحظ في تسميات الثورة الفرنسية والامريكية وثورة ماوتسي تونغ والثورة البلشفية قد استخدم بطريقة خاطئة فاطلق على حركة الامام الحسين بثورة الامام الحسين برغم انها في واقع الأمر كانت نهضة بكل ماتعني الكلمة من معنى.

إن الإسقاط القسري لمفهوم الثورية يجعلنا نتحاشى إطلاق مفهوم الثورية ونستعيضها بالنهضوية خاصة وأن النهضة لاترتبط بتغيير الحكم فقط بل بتغيير النفس اولا والمجتمع ثانيا.

٣ - يؤكد الكثيرون أن الانتحاء السريع للحركة نحو فكر اللاعنف يؤدي إلى ضياع الحركة لاهدافها أو تبدلها حيث تتراجع وتنسحب إلى مستوى هابط فيصبح هدفها مجرد اصلاح ثقافي أو سياسي أو تلهث خلف المشاركة في الحكم وقد تساهم السلطة في تحريف مسيرتها كما حدث لحركات كثيرة في الساحة كحركة فتح وحزب الاستقلال في المغرب أو حركة الاخوان في السودان.

مما لاشك فيه أن الاهداف المنشودة مرتبطة بطموحات الحركة وآلياتها ورجالها المخلصين الواعين أكثر مما يرتبط بأسلوب العمل سواءا كان عنفا أو لاعنف، ومتى ماوجدت آليات عمل متزنة وناجحة ورجال صادقون ستجد أن الحركة لن تتنازل عن اهدافها وستسعى للاقتراب خطوة خطوة نحو الهدف.

اننا نبصر عكس ذلك إذ أن العنف والإرهاب يزج بالحركة في متاهات ضياع الاهداف والمبادئ ولايوصل للمنطلقات الاصولية التي نهضت عليها القوى المخلصة. واكبر شاهد أن الحركات التي توسلت بالقوة العسكرية والعنف ساهمت في رسوخ الانظمة لا في زعزعتها وإسقاطها.

في الوقت نفسه لابد من الاشارة إلى أن ظاهرة العنف في الحركة تنمو وتزدهر اثر طموحات حركية اقرب للمثالية، إذ أن القيمين عليها يوحون لكوادرهم إمكانية ازاحة الحكم والجلوس على كرسي السلطة بلمح البصر، فترسم صور خيالية تتوسل الهيبة والقوة والمكنة التي لايضاهيها شئ، وأن رب العباد سيرسل ملائكته للنصرة متى دق القائد جرس الانذار!! وتترافق مع هذه الحالة اثارة اجواء حماسية توقظ الهمم والمشاعر، لكن سرعان ما يتحول العمل الإسلامي إلى ممارسات روتينية جامدة تخمد الاجواء الحماسية وتعري الواقع، وبالتالي تذيب همم الاشخاص وتسقطهم في شراك الاسترخاء.

في حين أن اللاعنف صورة واقعية أكثر اتزانا وصدقية للحالة العامة للحركة والاوضاع المحيطة حيث يتم وضع الأفراد والكوادر أمام حقائق معلنة عن مكامن القوة والقدرة كما يتوسم ايجاد صورة ماثلة للعدو دون الاغراق في ضعفه وتضعضعه مما يجعل الاهداف المنشودة واضحة

وسبل الوصول إليها قاطعة البيان ومسير تحقيق الاهداف منظما ومنهجيا مما يفوت الفرصة لمن يسعى لجر الحركة لاهداف جزئية أو يسقطها في شراك الخديعة.

٤ - في الوقت الذي يولد العمل الثوري المفرط رجالا ثوريين حماسيين متطلعين لغد افضل ويثمر افرادا مضحين متفانين يكونون رهن اشارة اوامر الحركة، كذلك فإن انسحابهم من الحركة سيكون رهين الظروف والاجواء المتغيرة التي تتلبد متى عصفت بها التغيرات، بل إن الانسحابات ستطال حتى معتدلي الحركة الثورية لما سيرونه من واقع مثالي مصطبغ لايستحق التعب والوهن.

لكن اللاعنف يولد رجالا أكثر اتزانا وتعقلا إذ انهم جاءوا في زمن الاسترخاء، لربما سيكونون أقل بكثير من انتماء الثوريين للحركة الثورية. لكن انسحاب الأفراد لن يكون بذا السهولة، لانهم انتموا عن قناعة وتعقل واتزان وضمن ظروف موضوعية.

من ناحية أُخرى فإن تكرس فكر العنف في الحركة يرهق الكوادر والنشطاء حيث سيكونون دائما على خط النار والمواجهة مع العدو، وبمرور الزمن سيؤدي لانسحابات نتيجة الارهاق والكلل دون الوصول للهدف المنشود.

ثانيا: اللاعنف مجرد ثقافة استرضائية!!

في ظل إلغاء الحدود بين الشرق والغرب وسيادة عصر العولمة والتقارب الحضاري والتسارع التكنولوجي الرهيب تظل مساحة الحوار متقاربة إلى حد كبير.

لكن البعض ينتابه شعور من الهوان حين تطل افكار التسامح واللاعنف والديمقراطية إذ يعتبرها رؤى مستمدة من نظريات وايدلوجيات وثقافة الغرب واننا مطالبون بضرورة الاستقلال الفكري والثقافي عن فكر العرق الابيض!!

ويضيف هؤلاء بالقول هل إننا مرغمون على تقديم ثقافة استرضائية لكي نكون مقبولين ومتحضرين وننال شهادة حسن السير والسلوك!! وأن الغرب لا يعطف علينا برضاه حتى نصبح نسخة مكررة منه لكي يعترف بحقنا في الحياة وهذا مالاترضاه أي امة تحترم ثقافتها وخصوصيتها الحضارية.

او أن تبني ثقافة اللاعنف تكتيك سياسي يضطر إليه البعض للخروج من القمقم، وأن عملية تكرير نقد العنف اجتهاد عصري أصطنع في هذا الزمان!!.

ولكن هل اللاعنف مجرد ثقافة استرضائية لا سبيل إلا باعتناقها لنيل رضا الغرب المنشود ؟!.

للاجابة على ذلك ثمة نقاط هامة لابد أن نضعها بين يدي القارئ:

١ - أن العنف والمرونة مفيدان كلاهما إذا استخدما في وقتهما ومضران إذا اسئ استخدامهما ايضا. وعملية نقد العنف لايعني أن يتحول الفرد خائرا متواكلا مضعضعا ينال صفعات من الاخرين ويصمت!! أن اللاعنف فلسفة تقابلها وعي وفطنة في استيعاب متى وكيف يستخدم اللاعنف ؟؟.

«إن الله سبحانه وتعالى جعل هذين الاسلوبين، العنف والمرونة سببا

لتجربة الإنسان وتقييم قيادته بحيث يعرف متى يقدم غصن الزيتون، ومتى يشهر السلاح، وللأسف فإن هناك من الناس من يزعم أن على الإنسان أن يرفع دائما الراية البيضاء، راية الاستسلام والتراجع والهزيمة، وعلى النقيض من ذلك فإن هناك من يرى أن على الإنسان المؤمن أن يشهر سلاحه دائما في وجه الاخرين، في حين أن كلتا هاتين النظريتين مغلوطتان»[1].

وإلا فإن العنف مقبول في مواضع عدة منها رد العنف ذاته ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2] ومن لايفهم غير لغة البندقية لايمكن أن تقدم له فروض الرحمة واللين والعطف!!. ثم العنف في محاربة النفس والهوى والشهوة والغضب وكل صفات الرذيلة المتمترسة في داخل النفس الدنيئة تحث الفرد على إطلاق عنانها. بالاضافة إلى العنف ضد الطبيعة وقساوتها والتحمل من أجل مقارعة التحديات في الحياة.

هذه المواضع لايمكن التسامح معها وتطبيق مفاهيم اللين واللطف، إذ أن القبول بما تفبركه النفس الامارة بالسوء سيكون دافعا نحو الرذيلة وكل صفات السوء والشر وليس من مجال إلا بتحديها ومقارعتها.

٢ - برغم الاختلافات الجوهرية بين الفكر الإسلامي والغربي إلا أن هناك قيما مشتركة بين الطرفين تمثل منبع نشأة النوع البشري وأصل الوجود الإنساني التي قامت عليها كافة الحضارات السالفة والمعاصرة من مثيل احترام كرامة بني ادم واحترام حقوق الإنسان وحقه في

---

(١) (المدرسي، محمد تقي - النهج الإسلامي تأملات في مسيرة الحركة الإسلامية).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

الاختلاف والدفاع عن القيم الأخلاقية وتعاليم الاديان والعمل على حل المشكلات التي تواجه الإنسانية وتشجيع الفهم المتبادل والاحترام والثقة بين الطرفين وتشجيع الاغناء والتلاقح الحضاري لخدمة الإنسانية جمعاء بدلًا من التطاحن وهيمنة حضارة على اخرى. والسبيل إلى ذلك اجراء حوارات لتعميق الفهم المشترك وتأصيل التداول المعرفي بدلًا من القطيعة ورفض الآخر والعمل على دحر حقه في الحياة.

٣ - أن العودة للجذور التاريخية هام جدا في استيعاب مايمثله التسامح من اصل عقيدي ومعرفي راسخ. أليس الاصل السلم كما أكدته البصيرة القرآنية، والسيرة المطهرة ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾[1]، وأن العنف استثناء خارق للعادة كما أكدها القرآن الكريم في بحثنا السابق. ألم تذكر سير التاريخ عدم وجود حادثة واحدة ارغم المسلمون فيها غيرهم على الإسلام أو آذوهم لانهم لم يقتنعوا بالإسلام حتى في الجهاد وفي ظل وجود دولة إسلامية وحاكم مسلم، في حين كانت غزوات الرسول تتسم بالدفاعية من أجل حماية العقيدة والشريعة والدولة حتى أن قتلى المسلمين والمشركين كما تذكر كتب السير لم يتجاوز الالف طوال حياة الرسول ﷺ.

من أجل ذلك لابد من اعادة قراءة التاريخ حيث يتضمن سيرا تختلط مابين الدس والافتراء وبعضها تنجرف لمديح العنف واقراره بشكل أو باخر مما تتناقض مع الاصول القرآنية التي استقرت في ضمير التشريع.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

من هنا فإن من السذاجة القول بأن اللاعنف مجرد ثقافة استرضائية في حين أن السير والاصول التشريعية أقرت اصالة السلم واللاعنف.

أما كان اللين والرحمة والرفق واللطف فضائل وخصائص الدعوة الإسلامية الناصعة ؟ اما كان منهج الإسلام ينضح بدحر العنف في كل علاقة يقيمها المسلم مع ذاته ومع الاخرين ومع الطبيعة ؟ اما قال رسول الإنسانية محمد ﷺ (هلك المتنطعون - أي ذووا الغلو والتشدد) و (لاتتشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها، ماكتبناها عليهم)[1].

ثم إننا غير مجبرين على تبرأة ساحتنا من الكذب والافتراء محاولين الخروج من قمقم وضعه حولنا غيرنا، أن المطلوب أن يخرج المفترون هم من عقدهم ويعالجوا ما علق في ادمغتهم من شوائب ويستلهموا من مصادر الإسلام الحقيقة الفكر الصافي أن ارتضوا لأنفسهم البحث عن الصدقية والحق.

فمن غير المعقول أن نظل نحن اسرى مغالطات غيرنا ثم نظل نصرخ ببرائتنا من الاكاذيب وكأن الحياة قد خلت من العقلاء وحملة الفكر والباحثين عن العدل والحق والإنسانية الكريمة الذين يجدون جدهم نحو الوصول إلى صلب الحقيقة.

---

(١) (الركابي، زين العابدين - المنهج الكلي في نقض العنف كله صحيفة الشرق الاوسط العدد ٦٩٤١ في ١٩٩٧/١١/٢٩).

ثالثا: مغالطة في الأفق:

تردد بعض الحركات الإسلامية (الحركة السلفية بالخصوص) مقولة أن بقاء الحاكم الظالم أحسن عاقبة من استخدام العنف لتغييره فما مدى صحة ذلك ؟؟

يبدو للناظر أن قصورا في المنحنى الفكري والثقافي يصيب البعض مصحوبا بقصور في التأصيل الشرعي اضافة إلى ندرة البحوث والمؤتمرات لوضع تصور واضح لمفهوم اللاعنف.

وما هذه النظرية إلا لمحة للقصور الفكري، فالخروج على الظالم تبيحه كل الديانات والمعتقدات بأعتباره حقا مشروعا للمظلوم، ولكن ماهو أسلوب التحرك وكيفيته فهو منوط برجال التغيير، فبالإمكان القيام بحركة اصلاحية اجتماعية أو سياسية أو الدعوة لدحر الظلم من خلال صناديق الاقتراع واستتباب الديمقراطية كمشروع اصلاح شامل أو القيام بأضراب سلمي أو ماأشبه اما استخدام العنف فهو لاجدوى منه جملة وتفصيلا.

إن مقولة كهذه تريح العامل وتبسط له طريق الدعة والتكاسل والراحة، وتفتح له أنابيب المال والدعم من قبل السلطة، ولاتستهدف غير التمصلح والانتهازي، وإلا لا أساس لها في أحكام الإسلام إطلاقا.

* * *

الفصل السادس:

آليات اللاعنف

كيف نستطيع أن نفعّل اللاعنف في اوساط العاملين في الساحة وفي ضمير المجتمع وقلوب الناس؟؟.. كيف لنا أن نجدد روح اللاعنف والتسامح ونخلق نهضة تناهض الإرهاب وتدحر اصوله ؟؟ هل لنا أن نكرس آليات عمل نستطيع تدوير التسامح واللاعنف في الكيان الإنساني وبالتالي نقضي على مسببات العنف قبل إن يطل برأسه البشع ؟؟.

إن كنا دعاة اللاعنف فاننا مطالبون اولا أن نخلق نهضة فكرية تعطي لهذا المضمون معاني متجددة وافكارا رائدة تكلس المفهوم الانهزامي والتبريري الذي يلحف منطلقات اللاعنف واصوله في الفكر الإسلامي والاطروحات الحضارية التي يبدو أنها تقدمت خطوات كبيرة في اسداء وارساء مصطلح التسامح.

إن وجود آليات تفعيل اللاعنف تعني بالتحديد ترجمة نظريته إلى أرض الواقع وتأصيل مجريات تدويره في الساحة حتى يكون اقدر على اثراء التفكير البشري نحو مزيد من النمو والوعي والتوثب ومن أجل أن يكون لهذه المناقبية مفتاح تعزيز المفاهيم التكاملية لصيانة حقوق الإنسان، وحتى لايكون للعنف مجالا يغذي الفئات والقوى الراكدة في حضيض المستنقعات المعرفية وغارقة في هوس التقليدية تظن انها تمتطي ابراجا

عاتية من الافضلية والادعاء المطلق بالسداد والتفوق الجنسي أو العرقي أو الديني أو المعرفي أو ما أشبه.

١- تكريس الشورى :

إن تكريس الشورى أو توزيع سلطة اتخاذ القرار في كافة مناحي الحياة من خلال تجذير قيم التعددية والحرية يفضي إلى تخريج عنصر بشري ناضج ومجتمع متحضر يفكر بالتنمية وينطلق نحو النهضة، كما أن استتباب الشورى يعني استلهام قوة ضاربة للتيارات والقوى العاملة، حيث يحصنها من الانشقاقات والانشطارات الناجمة غالباً من الفردية والهيمنة الابوية على سلطة اتخاذ القرار وعلى عقول الاتباع، فيما يعمل على طبخ القرار ضمن اسس سليمة من الفهم المعرفي المتكامل كما يربط القاعدة بالقيادة ويشد الجماهير إلى قطب رحى الحركة ومنطلقاتها.

يقول امير المؤمنين عليه السلام (ما عطب من استشار)

وعن الامام الكاظم عليه السلام (من استشار لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا).

إن التفعيل الديمقراطي والشوروي يساعد بتركيز شديد على تجذير السلام والاستقرار ويبعد شبح العنف بصورة متزايدة، فقد ثبت أنه خلال خمسين عاما الماضية كانت نسبة احتمال استخدام القوة والتهديد بين دولتين ديمقراطيتين لاتزيد عن ١٠٪، وكلما زاد غنى دولتين وزادت فاعليتهما الاقتصادية، قلت ارجحية دخولهما في صراع خطير، فالسلام بين الديمقراطيات ليس مجرد نتيجة لسمات اقتصادية وجيوسياسية لهذه الدول بل نتيجة للديمقراطية نفسها. إذ أن قيام ديمقراطية ما بالطغيان

على ديمقراطية أُخْرى معناه انتهاك الاعراف الديمقراطية نفسها ولهذا السبب فإن الحدود بين الولايات المتحدة وكندا مثلًا بقيت مأمونة لفترة طويلة رغم اختلال ميزان القوى بين البلدين[١].

يقول مدير عام اليونسكو فيدريكو مايور في بيان القمة العالمية للتنمية الاجتماعية في كوبنهاجن عام ١٩٩٥ (ان أسلوب الحكم الديمقراطي واحترام حقوق الإنسان والتسامح وحرية الصحافة هي أضمن السبل لضبط انواع التوتر السياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي والاثني.

ويضيف قائلا: أن أسلوب الحكم الديمقراطي أفضل أسلوب للقضاء على التمييز والابعاد الاجتماعية ومن ثم فهو يعزز التماسك الاجتماعي والمشاركة الكاملة لجميع أفراد المجتمع في عملية اتخاذ القرارات وخاصة منها المتعلقة بالتنمية المستديمة باعتبارها أفضل ضمان ايضا لتحقيق تنمية عادلة يستفيد منها الجميع فيعود المهمشون والمبعدون إلى كنف المجتمع)[٢].

اضافة إلى ذلك فإن النظم والقوانين الميسرة في استتباب التعددية في الدول الديمقراطية والحاجة للنقاش والتداول الديمقراطي مع الجماهير يقلل من فرصة الاتجاه للحرب ويوفر وقتا كافيا لاستخدام الاعراف الديمقراطية في المفاوضات.

ذلك أن قبول الآخر المختلف وتحمل تبعة آراء الاخرين ودبلوماسية

---

(١) (فاينانشال تايمز، ليس واقعيا أن تحارب الديمقراطية بعضها البعض -صحيفة السياسة الكويتية العدد ٩٧٣٨).

(٢) (صحيفة الاتحاد الاماراتية ٩ نوفمبر ١٩٩٧).

تداول السلطة والاراء في المجتمع يوفر فرص أكثر لتطبيق العدالة والحق، لأن من يستثقل رأي المعارض أو يدحر التعددية أو يكابر في ارائه، يصعب عليه أن يطبق خلاف مايظن وأن كان حقا وعدلا مما يخلق التفرد في القرار والديكتاتورية وما يستتبعها من امراض سياسية واجتماعية جسيمة في انتشار الحيف. أما قال الامام علي عليه السلام في خطبة له بصفين (فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالممانعة، ولا تظنوا بي أستثقالا في حق قيل لي، ولا إلتماس اعظام لنفسي فإنه من أستثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما عليه أثقل. فلاتكفوا عن مقالة بحق ومشورة بعدل)[1].

وكما يقول المثل (من يدفع ثمن الحرب لايمكن أن يسدد فاتورة السلام، فأما أن تدفع ثمن الحرب أو ثمن السلام)

إن غياب الديمقراطية في الحياة الداخلية والاحتماء بالسرية والكتمان قد يوفر غطاءا للفساد الاداري والشخصي والعجز الفكري وتدني الوعي، كما سيكون غطاءا للقسوة في الحياة الداخلية بين الاشخاص أنفسهم وبين الاشخاص والدولة، وتمهيدا لتبرير استخدام العنف ضد البعض أو ضد اعضاء التنظيمات والقوى والتيارات نفسها في حالات الانشقاق والخلاف الداخلي.

إن الشورى والديمقراطية تتفعل عادة من قمة السلطة واصحاب القرار وتنهض في المجتمع إذا نهضت في الطبقات المؤثرة في الساحة، وكلما

---

(١) (النائيني، الشيخ محمد حسين، تنبيه الامة وتنزيه الملة ص٩٧).

نمت في ادمغة الساسة والحكام والمثقفين، تجنب المجتمع انزلاقه في العنف. أن شرعية النظام والدولة أساس استتباب العدل والحق ودحر العنف ولاسبيل لشرعية الدولة إلا بالديمقراطية. وفي دراسة قيمة عن الديمقراطية في ٢٤ دولة (٨ من فريقيا و٨ من اسيا و٨ من امريكا) ثبت أن أحد المداخل الرئيسية لازدهار الديمقراطية هو ارتفاع القيادات السياسية إلى مستوى القدرة على تطبيق الديمقراطية[١].

من ناحية أُخْرى على القوى الفاعلة والتيارات المنخرطة في العملية الديمقراطية أن تطبق الديمقراطية داخل اجنحتها ولوائحها التنظيمية، لأن ذلك مفتاح نبذ التعصب والتطرف في الأفراد ووقف للحروب الفكرية الاهلية وكل سبل الهجوم والاستعداء في أسلوب الخطاب والتعامل مع الآخر المنافس والمختلف.

والامر الحاسم هو أن الحرب والغزو واستخدام العنف يعلي من شأن القلة على حساب البقية أو الكثرة وفي النتيجة قد لاتتم رعايتهم والاعتناء بهم - البقية - بحيث يصبح هؤلاء هم ادوات القلة مما يسبب شرخا في اصول الديمقراطية ونظمها.

٢- الحوار:

يمثل الحوار ركيزة أساسية في تكريس اللاعنف والنظم الديمقراطية من خلال الإيمان به والاعتراف بحق الآخر في الوجود، وإلا فإن إلغاء الآخر والتفكير باقصائه وارد خاصة إذا انتحى المتحاورون إلى الاعتقاد باحتكار

---

(١) (ظاهرة العنف والتطرف، منتدى التنمية ١٩٩٦).

الحقيقة ووضعها في نطاق الملكية الخاصة بأن تتكئ على نص ديني أو علم ووجاهة أو ادعاء عامل السن والخبرة والاهلية الفكرية وما أشبه اللَّهُمَّ.

إن استبداد رجل العلم في احتكار المعلومة عنده كاحتكار رجل الدين في اختصاصه وعدم احقية الاخرين مناقشة القضايا مما قد تغتال هذه الاجواء كل ادبيات الحوار وتساهم في رفع وتيرة التطرف والتزمت.

واذا كل العقل والمنطق والواقع الملموس ينص على حتمية الاختلاف كظاهرة طبيعية في الحياة الإنسانية فإنه ليس مستغربا اختلاف البشر في الافكار والتصورات والمعتقدات والعادات والتقاليد، والغريب حقا هو العمل على جعل الناس ضمن منظومة فكرية واحدة وثقافة احادية ومعتقد واحد لاغير.

من هنا فلايجوز باي حال من الاحوال الترفع على الحوار واعتبار ذاته ممثلا للقيم والمبادئ، كما لايمكن اعتبار افكاره وارائه وذاته فوق الحوار والنقاش والتساؤل.

واذا كان ربنا العظيم سبحانه يدخل مع عباده الضعفاء الذين لاقيمة لهم ولا وجود لهم إلا بفضلة ورحمته، يدخل معهم في حوار ويجيب على أشكالاتهم وتساؤلاتهم، فهل يحق لأحد بعد ذلك أن يترفع على النقاش أو يعتبر رأيه فوق التساؤلات والإشكالات[1].

وقد خصص القرآن الكريم مساحة وافية في التحاور مع الرأي الآخر حتى المخالفين والمنكرين لرسالاته ووجوده، حيث يتجاذب الله جل شأنه الحديث مع منكريه في حوار هادئ رقيق مقنع يحاول رد الشبهات بعقلانية

(١) (اليوسف، عبد الله، حق الاختلاف ومشروعية الرأي الآخر -مجلة الكلمة العدد ٦).

متناهية فيقول في كتابه العزيز: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾[2]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3]. إلى ذلك كان يشير الامام علي عليه السلام للخوارج بقوله (ان سكتوا تركناهم وأن تكلموا حاججناهم وأن أفسدوا قاتلناهم).

إن ما يؤسف له أن يصبح المتطرفون باسم الدين استبداديين في الحوار والنقاش إلى حد الغثيان، حيث انهم يعتبرون نطقهم سبر من المقدسات وأن غيرهم ليس كفئا لمحاورتهم وعليه أن يصغي اليهم ويأتمر، مما ينسف أي إمكانية لقيام الحوار من الأساس.

إن هذا المنطق «لايفرق بين العقيدة وبين الفكر الديني، بين النص المقدس وتعدد المعنى، بل يقيم مطابقة مطلقة بين ما يقوله هو وبين النص المقدس ملغيا المسافة بين النص والتأويل وهو ما قامت عليه المذاهب والفرق الدينية في كل زمان. فيرفض المتطرف كل التجربة التاريخية، وما أدت إليه من تجديد مستمر للصلة بين نص آمر وواقع متغير»[4].

ولو التزم المتحاربون فكريا وسياسيا والمتحصنون خلف جدر يقذفون الخصم بالمنجنيق من على بعد والضاربون في عروق الفتن، أو اولئك

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

(٤) (اومليل، د. علي العنف والسياسة في الوطن العربي - منتدى الفكر العربي عمان ١٩٨٧).

المتمترسون في قعر السلطة يمارسون هتكا للقيم والاعراف والاعراض بالمعارضين لهم ومنافسيهم على السلطة، لو التزم هؤلاء بأدب الحوار وموضوعيته بالتجرد من الاهواء والعواطف والمصالح الضيقة والتحرر من التعصب والتحزب لأصبح الاختلاف في الرأي يثري الساحة الفكرية بالمزيد من الافكار الحضارية وينمي الثقافات بمزيد من النهوض والانطلاق.

وليس من شك أن الحوار كخصيصة ومبدأ رائد ينبغي أن تسنده حرية اجتماعية وسياسية تجعل ممكنا تداول المواقع والاراء والقناعات والاختيارات، ناهيك عن القوانين والاعراف والمؤسسات التي تعبد للحوار مسلكا، هذه العناصر بلاشك تمثل ركائز هامة في تأصيل اللاعنف في المجتمع على المستوى الاجتماعي والسياسي.

اننا احوج مانكون إلى الحوار والتحاور مع الآخر المختلف لوقف سيل التزمت والعنف مادام أن الفكرة حرة طليقة لايمكن تسويرها في حدود جغرافية.

ولكن كيف يساهم الحوار في خفض العنف ؟؟

١ - يزيل الحواجز النفسية بين الاطراف المتضادة ويوقف مسلسل التكفير والتفسيق العشوائية.

٢ - الحوار أسلم الطرق للوصول إلى اقرب نقاط الحق إذ أنه يكشف نقاط الاختلاف والتوافق ويوفر أرضية التسامح لبناء جسور حول مختلف القضايا المتفق عليها وتشذب المغالطات الفكرية التي تحيط بالاطراف المتنازعة.

ففي الحديث (أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله)

(أضربوا بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب وأمخضوا الرأي مخض السقاء ينتج سديد الاراء).

٣ - تجسير التعاون بين كافة القضايا المتفق عليها والتواصل لمزيد من اللقاءات والحوارات والمنتديات لبحث القضايا المتنازع عليها.

٤ - وضع ضوابط ثابتة للعلاقة بين الاطراف تنهي حالة العداء القائم.

٣- المؤسساتية:

إن الانتقال من حالة الـ (انا) إلى حالة (الكل) في العمل الحضاري وتكريس العمل المؤسسي سوف يساهم في تخفيض خطر (الانا الانتمائية) أو التوجه الاوحد وبالتالي هيمنة الفكر الاوحد في الساحة.

والمؤسسات هي الاحزاب السياسية وجماعات المصالح والجمعيات النفعية والخدماتية والمؤسسات المتخصصة في مجالات عمل متعددة.

والحالة المؤسساتية تساهم في:

* تجذير الحالة القانونية بمعنى تعريف الجميع بخصوصياته التي ينطلق من خلالها إلى التفاعل مع الحياة.

فوجود قانون ونظام ودستور وانزالها إلى ساحة الواقع في العمل المؤسسي يشكل خطوة اولى على صعيد التقدم نحو اللاعنف ويوقف من نزيف السرية والتكتم والمركزية في العمل الذي يسود في السلطات القائمة أو التيارات الإسلامية والفكرية، وما أدت من سلبيات جمة وصراعات فتاكة ناهيك عن طرد الأفراد واقصائهم وما يشوبها من اثار

سلبية وخيمة، والسبب كما يلاحظ غياب القوانين والدساتير والنظم المؤطرة للعمل. .

إن النظم الأساسية واللوائح الادارية تعامل وكأنها سر من الاسرار، فالقاعدة العريضة من اعضاء التنظيم الإسلامي ربما تقضي العمر كله - في الصف - دون أن تطلع على النظام الأساسي الذي يحكمها مجرد اطلاع دع عنك مناقشته أو مراجعته أو اقتراح التعديلات عليه[1].

وليس مستغربا أن نعلم أن الحالة القانونية هي روح المؤسسات على اختلاف أشكالها ولايمكن أن تصمد حالة الفوضى واللاقانون في وجه عالم يعج بالمؤسسات والتجمعات والتكتلات الكبرى مالم يوضع لها دستور وقانون بحيث يكون هو الحاكم الوحيد في المؤسسة.

*** تآكل حالة التفرد:**

إن اخطر مايواجه المؤسسات هو سيطرة الحالة الانفعالية والقرار الفردي في اتخاذ المواقف، فبالمؤسسية نستطيع وقف سيطرة الفرد أو القرار الفردي أو الحالة الديكتاتورية من أن تسود، خاصة وأن الهيمنة القيادية خاضعة عادة للانفعال والاهواء التي تجذبها وبالتالي فإن تآكلها مهم في ظل وجود الحالة المؤسسية وروح القرار المؤسسي.

* تكريس آليات وادوات سلمية للمعارضة أو التغيير في الساحة، فالمؤسسات ستصبح نافذة مهمة في اتاحة المجال للأفراد بالبحث عن سبل أقدر على تحقيق الطموحات بعيدا عن الالتجاء للعنف والتزمت

---

(١) (النفيسي، د. عبد الله الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية اوراق في النقد الذاتي ص ٣٠).

والانعزال. في الوقت ذاته تمكن -المؤسسات والنظام المنظم لها- من ادارة عملية التغيير بدرجة من المرونة بحيث تستجيب للمطالب المجتمعية فيقلل من احتمالات انخراط بعض القوى الاجتماعية في اعمال عنف مضادة، كما يحتوي المهمشين من الفئات في أطر تنظيمية تبعدهم عن ممارسة العنف خاصة وانهم مادة خام للعنف السياسي.

* أن نشأة انماط مؤسسية وانشطة وعلاقات قيمية جماعية، من شانه زيادة إمكانيات الاستقرار، إذ يتجذر مفهوم المواطنة، وتضعف التمايزات على أساس ديني أو عرقي أو لغوي، ويجد الجميع قنوات شرعية وفعالة لتوصيل رغباتهم ومطالبهم وبذلك تقل إحتمالات لجوئهم للعنف. ويستند هذا التصور إلى أفتراض أساسي قوامه نجاح عملية التكامل من خلال الادوات الثقافية والسياسية والمؤسسية[1].

وقد اشارت دراسات متعددة إلى أن العنف السياسي ينخفض في البلدان الديمقراطية نظراً لوجود مؤسسات وسيطة تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وتضبط الصراع الاجتماعي.

* أن المؤسسية هي السبيل الوحيد للاعتراف بالولاءات التحتية والاقرار بشرعيتها واحترام الحقوق الثقافية والسياسية وتوفير مقومات الامن والهوية للجماعات كافة داخل الدولة، اما الدمج القسري للقوى والتيارات في بوتقة القرار المركزي ترفع من وتيرة الانقسامات الاثنية والعرقية والدينية، مما يؤدي لبروز التوتر والعنف ونقمة طرف على اخر نال امتيازا أكثر أو استولى على ثروة وسلطة ونفوذ أكثر وبالتالي

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق - ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٢).

يتولد صراعا بين الجماعات والتيارات ثم صراعا بينهما وبين السلطة. والخلاصة أن تسييس الانقسامات السلالية واللغوية والدينية واعطاءها مضامين اقتصادية واجتماعية يؤدي إلى تفجيرها، اما الاعتراف بها والتسليم بشرعيتها وحماية حقوقها فيكون مدخلا للاستقرار.

* أن المؤسسية تسرع من عملية تمدن المجتمع وتعجل من تكامل وتنموية المسيرة الثقافية والاجتماعية، كما انها تخفض من التأثيرات السلبية التي يمكن أن تحدث في ظل تناقض وتفاوت التنمية السريعة والتحول إلى خضم الحداثة بشكل سريع وما يرافقها من عنف متولد من غربة التحول السريع على أفراد المجتمع ومستحدثاته وآثاره المفاجئة، بشرط أن يتوازى معدل النمو المؤسسي مع عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وأي خلل فيهما يفضي إلى زيادة العنف السياسي. أن قصور التنمية الاقتصادية في الاستجابة للمطالب الشعبية وعجز المؤسسات السياسية في استيعاب المطالب يؤدي بالضرورة إلى شعور المواطن بالاحباط واحتمال انخراطه في العنف يتزايد. لكن العملية المؤسسية تستطيع أن تلبي المطالب الشعبية وتخفض من درجة الاحباط النفسي وبالتالي تسير دورة التمدن والتحضر في المجتمع بكفاءة لابأس بها.

يقول دوف ومامكنت (ان أداء النظام وفاعلية مؤسساته تعتبر من العوامل الأساسية التي تحد من أعمال العنف السياسي التي يمكن أن تنجم عن عملية التعبئة الاجتماعية (أي التعبئة الناتجة عن التحول إلى المجتمع المدني)).

ويؤكد الباحثان بيتر وشنايدر في دراسة في (١٠) دول متقدمة خلال فترتين زمنيتين (١٩٨٤-١٩٨٥) و(١٩٥٩-١٩٦٨) إلى أن التغير الاجتماعي السريع يؤدي إلى العنف. ولكن في الدول التي لديها مؤسسات سياسية قادرة على التكيف، وموارد اقتصادية ملائمة، يقلل العنف الناجم عن التغيرات الاجتماعية).

أما فيرباند فيعتقد بوجود علاقة خط منحن معتدلة (Moderate Curve Liner Relationship) بين العنف السياسي والتعبئة الاجتماعية. فالعنف السياسي يتزايد خلال المراحل الاولى من عملية التعبئة الاجتماعية، ولكن بعد مرحلة معينة من التعبئة تكون قد تطورت خلالها مؤسسات وعلاقات حديثة تستوعب آثار عملية التغيير وتداعياتها، يتجه معدل العنف السياسي إلى الانخفاض، بينما يستمر معدل التعبئة الاجتماعية في الارتفاع)[1].

٤- تكريس النظم الأخلاقية:

من خلال قراءتنا السريعة للإحداث التاريخية يبدو أن ملمحا يجسد تهشم القوى بسبب الخلافات الداخلية والشقاقات والخصام العنيف بين رؤوس واقطاب التكتل تعود جذورها إلى حب الذات وطلب الرئاسة والزعامة واتباع الهوى، فيتحول إلى خلاف ظاهره قضايا حركية أو دينية أو فكرية أو تداخل اجنحة متنافسة، لكنه في واقعه امور شخصية وتطلعات ذاتية مغلفة بمصلحة الدين والإسلام والجماعة يفضي إلى

---

(١) (إبراهيم، د. حسنين توفيق - ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية - مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٢).

تطرف بين الاعضاء سرعان ما يتحول إلى تطرف مع الاخرين.

ولمعالجة هذه الظاهرة المرضية لابد من تكريس القيم الأخلاقية في العمل، فنتيجة غياب الأخلاق وتغييب القيم الأخلاقية في العمل السياسي والإسلامي تحولت الخلافات العملية والاجتهادات المتغايرة والمواقف المتباينة إلى صراعات دامية ونزاعات استهلاكية.

ومن اهم هذه الأخلاقيات احترام الرأي الآخر وافساح المجال للاجتهاد الفردي ناهيك عن اهمية تكريس الضوابط الشرعية بعدم الطعن والتجريح واستخدام الغيبة والنميمة والكذب وقول الزور والبهتان ضد المخالف في المنهج اوالموقف السياسي.

يقول الامام علي عليه السلام لاصحابه ايام حرب صفين «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر وقلتم مكان سبكم اياهم اللهم أحقن دمائنا ودمائهم وأصلح بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به»[1].

لقد مارس الامام علي عليه السلام أروع صور المعاملة الأخلاقية مع الآخر المختلف، مرسيا نظرية اللاعنف في ادارة الصراعات والازمات. فقد كان علي عليه السلام يخطب على المنبر إذ جاء رجل وقال: لاحكم إلا لله ثم قام آخر فقال: لاحكم إلا لله، ثم قاموا من نواحي المسجد يحكمون الله. فأشار عليهم بيده: اجلسوا، نعم لاحكم إلا لله، كلمة حق يبتغى بها باطل، حكم الله ينتظر فيكم، إلا أن لكم عندي ثلاث خلال ماكنتم

(١) (نهج البلاغة شرح محمد عبده ج٢ ص ٤٦٩ دار البلاغة - بيروت).

معنا: لن نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها أسمه، ولا نمنعكم فيئا ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولانقاتلكم حتى تقاتلوا. ثم أخذ في خطبته.

وبهذا وضح الامام عليه السلام حقوقهم بانها حق التعبد (كحرية دينية) وحق التأمين ضد الجوع وحق النقد.

وروى المؤرخون: أن الحريث بن راشد الشامي كان عدوا للامام فجاءه قائلا له: والله لا أطعت أمرك ولا صليت خلفك! فلم يغضب لذلك ولم يبطش به، ولم يأمر به بالسجن أو العقوبة وانما دعاه إلى أن يناظره حتى يظهر أيهما على الحق ويبين له وجه الحق لعله يتوب، فقال الحريث: أعود لك غدا، فقبل الامام فأنصرف إلى قومه ولم يعد!.

لقد ادى التعامل الأخلاقي الرصين مع المعارضة إلى أن يأتي المعارضون لأخذ حقوقهم وعطاياهم من الامام مباشرة امثال عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة[1].

إن على العاملين في الساحة والمنظرين أن يكفوا من بدع التكفير والتفسيق التي تسود بشكل فاحش في الاوساط الإسلامية تحت ذرائع مختلفة وانماط متعددة، في الوقت الذي يمكن أن يفتح باب الحوار العام في ساحة نقاش حرة وعلى موائد من المنتديات والمؤتمرات دون أن يكون هناك من داع لإطلاق الفتاوى من بعيد.

يقول ابن عمر (اذا قال الرجل لاخيه ياكافر فقد باء بها احدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه)[2].

---

(١) (اليوسف، عبد الله - حق الاختلاف ومشروعية الرأي الآخر مجلة الكلمة العدد ٦).

(٢) (رواه مالك والبخاري ومسلم وابن داوود والترمذي).

وحديث ابن قلابة (من رمى مؤمنا بكفر فقد قتله) (رواه البخاري ومسلم).

إن الامام علي عليه السلام لم يرض أن يسمي مخالفيه بالنفاق أو الكفر أو الشرك بل قال عنهم بأنهم (اخواننا بغوا علينا)

يذكر أن فرنسا قررت تطبيق درس الأخلاق في المناهج الدراسية لانها رأت على حد قول الوزيرة المفوضة للتعليم المدرسي (سيجولين روايال) أن العنف السائد في المجتمع يستدعي التفكير الجدي في الدور الأخلاقي للمدرسة وفي ضرورة تعليم التلاميذ مبادئ العيش بسلام مع الاخر. وأضافت أن حصة التربية المدنية ستعلم الاولاد والبنات كيفية احترام الجسد الإنساني وعدم اللجوء إلى الفظاظة معه أو الاعتداء عليه، أن الشبيبة بحاجة إلى تعلم القاء عبارة (صباح الخير) واصول الحوار الديمقراطي ونبذ العبارات النابية التي باتت علامة في قاموسهم اليومي[1].

٥ - الإيمان بالتعددية:

كل شخص يتمنى من اعماق قلبه أن يرى امته ومجتمعه وطائفته متوحدة متماسكة بعيدة عن الصراعات والنزاعات، ولكن هذه الامنية يشوبها سوء فهم التعددية. فالبعض يعتقد أن الوحدة إنما تتحقق بأتفاق الاراء وتطابق المصالح ووحدة القيادة وهي صورة مثالية لايمكن على المدى القريب تحقيقها. ذلك أن الاختلاف بين البشر في افكارهم وارائهم ومواقفهم وعاداتهم أمر طبيعي تقتضيه ظروف نشأة البشر حتى أن القرآن الكريم يؤكد على حتمية وجود الاختلاف والتفاوت بين ابناء

(١) (صحيفة الشرق الاوسط اللندنية العدد ٦٩٤٠ - ٩٧/١١/٢٨).

أدم إذ يقول عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(١)

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٢).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾(٣).

بل إننا نجد حتى في الامور الواضحة والجلية يطل الاختلاف في الاراء والمعتقدات حتى في خالق الكون (أفي الله شك فاطر السماوات والأرض) ويمتد الاختلاف بين الناس في درجات الإيمان كما يمتد لمستوى المعرفة والوعي حيث تباين مدارك الناس وقدراتهم على الاستيعاب وفهم الحقائق ومتى تفاوتت درجات العلم والادراك والوعي، تفاوتت المواقف والممارسات والعقائد.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي (ان من العبث كل العبث أن يراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء وجعلهم نسخا مكررة ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا غير ممكن لأنه مخالف لفطرة الله التي فطر الناس عليها وغير نافع لو امكن، لأنه لانفع في مخالفة الفطرة بل من خالف الفطرة عاقبته عقابا معجلا. ثم أن الاختلاف إنما هو اختلاف وتنوع لا اختلاف تضاد والتنوع دائما مصدر اثراء وخصوبة وهو آية من آيات الله

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٩.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٨ - ١١٩.

الدالة على عظمة قدرته وبديع حكمته ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[1][2].

من هنا جاءت الاحكام لتقرر حرية الفكر والمعتقد والرأي وتدحر أي شكل من أشكال التزمت والتعصب:

يقول الامام علي عليه السلام (الزموهم بما التزموا به)

وعن الامام الصادق عليه السلام (كل قوم دانوا بشئ يلزمهم حكمهم).

وسيادة التعددية تخفض من درجة حدة الصراعات والالتجاء للتزمت والتطرف والعنف في الممارسات. بينما تزايد حدة الانتماءات العرقية والاثنية وارتفاع وتيرة اضطهاد الاقليات يسبب نشأة التوتر في ظل الحرمان وهدر الحقوق. ثم أن المركزية وحكم الفرد دائما يعلي شأن الاقلية وتحجم من مساحة الحريات للاغلبية وهو باعث على العنف.

إن كفالة مبدا التعددية لكافة بني ادم دون اعتبار للعنصر أو المذهب أو الطائفة أو الفئة أو الدين أو الجنس، انطلاقة لتسييد حرية الرأي والمعتقد في التعبير عن آرائهم وافكارهم السياسية والاقتصادية والعقيدية وبالتالي نشر ثقافة التسامح الديني والثقافي كباعث جنيني لازالة التوتر.

في الوقت ذاته علينا أن نقبل التعدد الحضاري، وعلى الغرب أن يفسح المجال للحضارات الأخرى أن تقول كلمتها في شؤون البشرية ويقبل حضارات الاخرين بين حضارته وأن يدرك أن لامصلحة ولا صواب في

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٢.

(٢) (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ٦٤).

نماء العالم وفق نموذج حضاري اوحد، بل لابد أن يشترك الجميع لحماية العالم من الفساد والدمار والمشكلات المتلاحقة.

٦- تفعيل دور التعايش:

قرر الإسلام ضرورة احترام اصحاب الديانات الأخرى من مبدأ التعاون العالمي لتحقيق السلام حيث يؤكد تعالى في محكم كتابه المجيد ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(١).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

بل نهى الإسلام بشدة الاكراه والفرض في الدين حيث يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

من جهة أُخرى لابد أن نستقبل اي مقاربة معاصرة من قبل الديانات الأخرى والنظرات الناضجة ذات الفهم الواعي على محمل من الترحيب والعمل الجاد على دعم هذه الطاقة الباعثة على الاستقرار والتآلف من امثال الامير تشارلز والبابا يوحنا بولس الثاني حيث يقول في كتابه (عبور

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٩.

حدود الرجاء) «تكن الكنيسة الكاثوليكية احتراما كبيراً للمسلمين الذي يعبدون الله الواحد الحي القيوم مما يبرهن المسلمون انهم قريبون جدا من المسيحيين في نظرتهم إلى الله الواحد مغترفا من القرآن الكريم قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[1]. وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

وينتقل البابا إلى موضوع السيد المسيح ويقول أن القرآن الكريم يذكره بأحترام كبير والاهمية الكبرى التي أسبغها القرآن الكريم على مريم العذراء لم تحظ بها في الانجيل المقدس»[3].

إن ذلك يؤسس قاعدة قبول الآخر المختلف واحترام حقه في الوجود ومشاركته الحياة والتعايش المشترك على هذا الكون والعمل على فتح قنوات الحوار والانفتاح بغية المزيد من اذابة الجليد والعمل سويا لاحلال العدالة والحرية ونشر الأخلاق والفضيلة والتسامح بين الشعوب.

إن مبدأ التعايش من ركائز اقامة المجتمع الإنساني السليم والمستقر ومفتاح تحقيق الامن الذاتي للفرد والمجموعات فالتعايش يعني نبذ استخدام القوة والسلاح في العلاقة بين المجموعات المختلفة وهو أساس السلام الاجتماعي. ومن الضروري أن يبدأ الطرفان بازالة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٣) (ابو زيد، شفيق – الإسلام والمسيحية في الكتاب الجديد للبابا صحيفة الحياة اللندنية في ١٩٩٤/١٢/٩).

الكراهية والخوف من الطرف الآخر وفتح قنوات التفاهم والحوار.

يذكر التاريخ أنه بعد أن وضعت الحرب اوزارها في خيبر بأنتصار الإسلام على اليهود أتى المسلمون مجموعة من النساء كأسارى إلى رسول الله فسألهن عن سبب حزنهن وانكسارهن ؟ فأجبن بحزن: قد مر بنا هذا العبد (أي بلال بن رباح) على مصارع قتلانا فتألم الرسول ﷺ وقال لبلال: هل نزع الله الرحمة من قلبك يابلال حتى تمر بالنسوة على مصارع قتلاهن «وكان من بين الاسيرات صفية بنت أحد كبار اليهود وقد احترم عواطف اليهود ونواميسهم فأطلقها حرة ولما لم يجد لها وال ومعيل خطبها ﷺ لنفسه[1].

التنمية جوهر التعايش

إننا إذا كنا مطالبين بتحقيق التعايش بين الشعوب فنحن - وكمحاولة أولية - لابد أن ننطلق نحو تحقيق تنمية عالمية تستند على مبدأ المساواة بين الشعوب في الحصول على التغذية وتوفير الخدمات الصحية بشكل كامل وضمان توفير التربية للجميع والوصول إلى المعرفة العلمية والتكنولوجية وضمان سلامة البيئة والتصدي لانتشار المخدرات واسباب الهامشية والعزلة وخاصة في أوساط الشباب.

كما تقتضي التنمية «أن يكون هناك تكافؤ في الفرص وتشاطر عادل للموارد العلمية والتكنولوجية والمالية المتاحة. فالتنمية اذن تتعلق في آن معا ببناء السلام والنمو الاقتصادي والاستدامة البيئية والعدالة الاجتماعية وأسلوب الحكم الديمقراطي وتراعي الحكمة الموروثة لكل مجتمع

(١) (الشيرازي، محمد مهدي الحكومة الإسلامية في عهد امير المؤمنين ص ٦٦).

وشعب من الماضي وتحرص على رفاهية الأجيال المقبلة[1].

إن من الاهمية بمكان أن نجد نظاما أخلاقيا للتنمية يعمل وبغض النظر عن نسبة الفائدة وطرق نقل التكنولوجيا واسعار المواد الاولية والتذبذبات بأسعار العملات والحدود الجمركية، يعمل من أجل ايجاد سبل للتنمية تدعو للافتخار بها.

إن التنمية العالمية ليست مجرد حبرا على ورق بل هي خطة شاملة تقوم على تقليص المخصصات المالية غير المنتجة ومنها شراء الاسلحة والمعدات العسكرية وتخصيص المزيد من الموارد العالمية لاغراض التنمية الإنسانية ووضع سياسات جديدة للتعاون والتنمية بين الشعوب والدول.

إن ٨٠ ٪ من ثروات العالم هي اليوم بأيدي ٢٠ ٪ من سكان الدول الاكثر غنى فيه، ومن غير المعقول أن نتمنى تحقيق تنمية إنسانية عالمية في ظل احتكار الثروات بيد القلة وحجبها عن الدول الفقيرة.

الثقافة مقود التنمية

تحتل الثقافة دورا جوهريا لقيام نظام اقتصادي تنموي عالمي لايستند على مبدأ السيطرة بل إلى مبدأ اللقاء والحوار بين الثقافات، ومن هنا كان حوار الثقافات المدخل الطبيعي للتعاون الاقتصادي والسياسي والتنموي، وانه لايمكن أن يحقق التعاون الاقتصادي العالمي نجاحا دون أن يرتكز بصورة علمية وسليمة على حوار الثقافات.

---

(١) (اليونسكو مهمة بناء حصون السلام في عقول البشر – صحيفة الاتحاد الاماراتية ٩ نوفمبر ١٩٩٧).

إن التنمية اليوم قد اتسع مفهومها عندما ادرك الناس أن المعايير الاقتصادية وحدها لايمكن أن تؤلف برنامجا لكرامة الإنسان ورفاهيته، إذ انها تتراوح بين الحرية السياسية الاقتصادية والاجتماعية والفرص المتاحة للفرد في أن يكون مبدعا متعلما منتجا يحترم ذاته وينعم بحقوقه كإنسان.

ثم أن الثقافة حصن ووسيلة وملاذ للتصدي لقصور النظام العالمي، ذلك أن الثقافة تاصل قيم التسامح وبناء مفاهيم السلام بعيدا عن المصالح السياسية واللعب الغارقة في الحيف واختلال موازين العدل حيث تستطيع الثقافة أن تمارس دورا فعالا في تأصيل المفاهيم الإنسانية دون حدود جغرافية وموازين سياسية ومصلحية.

إن المطلوب لتحقيق تنمية ناجحة أن تتركز الوسائل الثقافية في تثقيف الشباب في مجال السلام والتعددية والديمقراطية واللاعنف والتسامح، وتحسين مفاهيم حقوق الإنسان والاعتراف بها وحمايتها، وتعزيز الحقوق الثقافية والاسهام في منع التمييز بكافة أشكاله. والاسهام في دعم الديمقراطية في كافة مناحي الحياة وتقوية المجتمع المدني من خلال تبادل المعلومات والخبرات وتوفير الخدمات الاستشارية والتقنية، كما يجب دعم التعددية الثقافية في المجتمعات المتعددة الثقافات وتعزيز قيم الحوار بين الثقافات المنتشرة في العالم.

إن الثقافة مسئولة في بناء الثقة بين الشعوب والحضارات من أجل تعايش سليم.

كما أن من احدى ركائز العملية التنموية تاكيد حرية الصحافة في العالم

وتدفق المعلومات والانباء بدون قيود، ذلك أن افضل سبل قتل السلام هو اغتيال الكلمة والصوت. أن تأكيد حق كل شخص في التعبير عن رأيه واعتناق الاراء دون أي تدخل واستقاء الاخبار وتلقيها واذاعتها بأية وسيلة كانت دون موانع الحدود الجغرافية ضرورة ملحة في تعزيز التعايش.

التربية عجلة التنمية

إن تعزيز التربية تمثل واحدة من ابرز وسائل تنشيط التنمية في أي مجتمع، حيث تتكرس الممارسة النشطة للمواطنة وغرس المواقف الديمقراطية واحترام مبادئ حقوق الإنسان والتسامح واللاعنف وذلك منذ نعومة الاظفار وتعهدها بالرعاية مدى الحياة.

والمدرسة هي أول وأهم مكان يتعلم الطفل كيفية ممارسة التسامح في الحياة اليومية وصقل الجيل الجديد على مشاعر الانفتاح على الاخرين واحترام الآخر مع الالتزام بمعنى التضامن والتقاسم والاحتفاظ بمشاعر الثقة بهويتهم.

إن الطالب لابد أن يتعلم أنه حر في التمتع بحقوقه دون أن نعتدي على حقوق الاخرين وحر في ممارسة طقوسه وتعبده دون أن نتنكر للاخرين بمثل هذه الحرية.

إن التنمية البشرية خلاصة النجاح في التنمية الشاملة، وليس بمقدورنا أن نواجه مشكلة الازدياد المتصاعد بعدد سكان العالم (الذي تقدره الاحصائيات العالمية أنه سيصل إلى سبعة مليارات أو ثمانية مليار شخص خلال الثلاثين سنة القادمة) بدون عمل تربوي عالمي، ذلك أنه

لايمكن التصدي للفقر المادي من دون التصدي لمواجهة الفقر الفكري والثقافي.

إن دور التربية في تحقيق التنمية الإنسانية يقوم على ابراز عالمية بعض القيم كالتسامح وانفتاح وتنوع الثقافات العالمية واحترامها والدخول في حوار مثمر بناء من أجل خير وصالح البشرية.

من هنا يتأتى اهمية توفير التعليم للجميع والتعاون بين الشعوب والتداول الحر للافكار وانتفاع كل فرد بثمار المعرفة وخاصة بتقدم العلوم والتقنيات كعامل هام في التعايش العالمي. كما يجب تعزيز التعليم المستمر أو مايسمى بالتعليم المفتوح باعتباره عاملا أساسيا من عوامل التنمية لما يمنح الفرد من الاستقلال مايمكنه التغلب على التحديات المستقبلية.

٧- تكريس مبادئ حقوق الإنسان:

لئن كان القرآن الكريم قد اكتفى بسرد ملامح حقوقية عامة من مثيل ضمان حرية الفكر والاعتقاد وحرية التعبير وكفل العدل والمساواة وامر بحفظ الحياة للإنسان وصان كرامة الإنسان (ولقد كرمنا بني ادم) فأن الدوافع الإنسانية لمبادئ حقوق الإنسان تعتبر مطلبا حقيقيا في لجم العنف وأشكاله وأن القول بأن حقوق الإنسان مضمونة لمجرد انها قد ذكرت في نصوص دينية أو ثانونية -فقهية- فإن الحقيقة الواقعية كانت مختلفة عن التنظير، مما يحتم عدم الاكتفاء بها في تدوينها في الدساتير دون ترجمتها إلى الواقع.

ولفهم مبادي حقوق الإنسان في مجتمعاتنا لابد من التجديد الثقافي

وتحرير التصورات التقليدية الإسلامية والغربية لتأصيل الحقوق العامة بعيدا عن التنظيرات التي تسلب بعض الحقوق.

كما أنه من الضروري تكريس الممارسات الحقوقية في مختلف مشارب الحياة العامة وهذا يتطلب أن تتدرج لكل مناحي الحياة من الاسرة إلى البيت إلى المدرسة إلى العمل لتجذير الحقوق وتطويرها وتحويلها إلى اطر مؤسساتية في المجتمع.

احترام الأقليات

ولعل من اهم مبادئ حقوق الإنسان الباعثة على استتباب اللاعنف هو احترام الاقليات، حيث تمثل الاقليات بؤرة توتر نظراً للتمايزات السياسية والاقتصادية والاثنية التي تضخم من درجة المعاناة. فالملاحظ في الكثير من دول العالم أن مناطق الاقليات غالباً أكثر المناطق تخلفا، كما انها تحوز على نصيب متدن من ميزانيات وخطط التنمية الوطنية برغم أن بعض مناطقهم تشكل مصادر للثروات الطبيعية والنفطية كما في جنوب السودان أو مناطق الاكراد في العراق أو مناطق الشيعة في السعودية، ناهيك عن التمايز الثقافي واللغوي كالبربر في الشمال الافريقي والاكراد في العراق أو الاقليات المسيحية واليهودية في بلاد الشام والمغرب العربي والعراق.

إن هذا من شأنه أن يخلق تمييزا سياسيا ضدها حيث لاتمثيل لها في سلطة اتخاذ القرار والنخب الحاكمة ومؤسسات الدولة الرسمية وأجهزتها، اضافة إلى تنامي المطالب الاقتصادية بعدم الحصول على نصيب عادل من الثروة والخدمة في المجتمع وفي ظل الغبن المتزايد والظلم الثقافي من عدم

التمكين في التعبير عن الخصوصيات الثقافية. هذه العوامل كافية لنمو الولاءات التحتية سواءا كانت قبلية أو عرقية أو طائفية أو دينية وهي مسألة وثيقة الصلة بالعنف السياسي والاجتماعي وباعثة على خلق بؤر توتر أو الدعوة لنيل الحكم الذاتي والانفصال عن الدولة.

والأخطر من ذلك محاولة استيعاب واحتواء الأقليات بطريقة الدمج القهري في المجتمع سواءا من خلال محاولة محو خصوصياتهم الثقافية أو اقحام سياسات جبرية تفرض نمطا من التجهيل وضرب الهوية القومية والدينية لهم، أن لم تتطور لتصل إلى استخدام القوة والقمع لضرب حركاتهم وانشطتهم أو تفتيت وجودهم وخلق الصراعات بينهم الأمر الذي يحولهم اداة طيعة بيد الحكام واصحاب القوة والسلطة.

وقد يصل احيانا إلى خلق ثمة هواجس واوهام ملفقة باتهامات عدم الولاء للدولة الوطنية، مما يبرر ممارسة التمييز ضدهم وسلب كافة حقوقهم.

إن احترام الاقليات يمثل مبدأ هاما من مبادئ حقوق الإنسان من خلال المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين، والاتجاه لخلق سياسات تنموية متوازنة تنزع عن الاقليات الغبن والحيف وفتح كافة منافذ الحياة العامة من توظيف وفصول الدراسة ونيل المناصب القيادية دون اعتبار للمذهب أو القومية أو الطائفة أو العرق خاصة في ظل التعدد الاثني في كل بلدان العالم وبالخصوص العالم العربي.

٨- المراجعة الجديدة للتاريخ:

يمثل التراث الديني أحد ابرز مناحي سوء فهم الادبيات والمنطلقات

الفكرية التي ينطلق منها فكر العنف ولعل ابرز هذه الملامح التناقض الصارخ إلى حد التلازم بين مفهومي الجهاد والعنف أو بين الانتحار والاستشهاد أو الانفتاح على الحضارات الأخرى أو كما يحلو للبعض تسميتها بالتبعية، مما يتسبب في خلق أزمة ثقافية عميقة تتطلب اعادة قراءة التاريخ بمنظور مختلف وروح ناقدة ومراجعة مستحدثة.

ومما لاشك فيه أن معضلة التراث التأريخي هي معضلة السلطة نفسها، حيث كان المؤرخ رواية أو مصنف أو راوي يقترب في وظيفته من دور الشاعر، مما يحيله إلى مجرد قطعة اثاث في بلاط الحاكم ليتفادى بطش الدولة، حتى ظهر في التاريخ نمط من الروايات لم تكن سوى مجرد تصفيق لسياسة الامراء وتماهي وتواطؤ مع السلطة وتأييد لمنهجية حكمه. ومن غير المعقول في ظل هذه الضبابية أن نستغفل التلفيق والدس والتدليس في صفحات التاريخ. في الوقت ذاته كان التأريخ دائرة مستهدفة يسعى لها الكثيرون من أجل توظيفها لصالح ايديولوجية معينة، فكان الاستشراق وكان التزييف السلطاني وكان العدو المترصد لهذا الدين البازغ نوره فوق العلياء.

ثم أن الازمة احيانا لم تكن في التاريخ ذاته، ولكن في طبيعة الكتابة التاريخية الناظرة للحقل التاريخي وكأنه مرتعا للاهواء والرغبات والطموحات الجانبية والمسلكيات العنصرية والاقليمية المنحرفة، فأنصبت عليه كل سيئات الماضي وصراعاته وسلبياته ومشاكله المستعصية، مما فقدت نكهة منهجية وموضوعية المؤرخ والتاريخ قد تمدنا قدرا من المعرفة.

في حين كانت عقدة (التأريخ للبطل) واحدة من ابرز ازمات التاريخ

المتأثرة بالعقلية الشرقية التي تعشق تجسيد البطل ووصوفه ونعوته وخلق هالة مقدسة حوله، باعتباره سوبرمان يحول اللاشئ إلى شئ. هذه الرؤية كانت كفيلة في الوقت ذاته -وكمطلب طبيعي ملحق بالسابق - أن تقصي الفئات التي وقفت في وجه البطل من جبين التاريخ مما شوه كل معاني الموضوعية والعلمية والصدقية في الكتابة التاريخية. ناهيك عن معضلة اختفاء الوثيقة واندراس الخبر في ظل هيمنة ايدلوجية تحجب كل مضاد لفكرها، وبالتالي فإنه يصبح من المستحيل استعادة المادة التاريخية بعد هذه المدة الطويلة التي تفصلنا بالتاريخ.

إن عملية تحرير التاريخ من تبعات التزوير والمفارقات يعتبر هدفا جوهريا لمعالجة ازمات سوء فهم التاريخ من أجل مزيد من الوضوح في المادة العلمية والعقلانية في الفكر السياسي الإسلامي النير.

إن علاقتنا الحميمية بالتراث والتصاق الناس بقدسيته هو انموذج مشرف لديننا وقيمنا، ومن غير المعقول أن نبرأ منه أو نلفظه لمجرد رغبتنا في اللحاق بالحضارات الإنسانية الأخرى ونهضة التكنولوجية، ولكن في الوقت ذاته لابد أن يكون التاريخ جسرا للحاضر يلهمنا بناء المستقبل من خلال الارتقاء بالناس إلى مصاف الوعي والتجلي العقلي.

لئن كان كذلك فلابد من العمل على قراءة التراث من جديد من أجل تأسيس العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية الكامنة وراء تجديد رؤيتنا إلى موروثنا الثقافي واستنطاقه لحاضرنا وتحديث واقعنا المعاش وفق منظومات وقيم جديدة في ظل التحديات الراهنة التي تشكل تهديدا لوجودنا على ساحة المستقبل.

كما يجب أن نلاحظ ثمة أمر مفصلي لتحركنا الحضاري المتمثل في مباركة الجهود الإنسانية في مختلف الحقول والجوانب لاستمرار حركة الابداع وأن لم تكن جزءا من تأصيلنا التراثي، وليس عيبا أن نجد ثمة ابداعا فكريا وثقافيا وإنسانيا مستحدثا في واقعنا ونقوم بربطه بتراثنا في عملية اضافة مستحدثة، فإن كان التسامح مثلًا فكرا إنسانيا رائدا يمكننا تكريسه في مبضع واقعنا المعاش فما المانع لو قمنا بتبنيه دون الحاجة إلى عملية عجن فكري وعصر مستميت للبحث في افران التراث -ان لم تكن لنا حصيلة تراثية قيمية -.

* * *

الفصل السابع:

في وعي التسامح

يبدو لنا أن التسامح كمفهوم لازال محل جدل على الأقل لغويا بين العرب والغرب ولسنا في صدد هذا البحث، ولكن اعتقد أن المعنى الذي يقصد منه كلمة التسامح هو التحمل مع معاناة من أجل التعايش مع أمر لايحب في الحقيقة أو التوافق مع قضية لا أخلاقية لمجرد الرغبة في التسامح.

لكن ذلك يعبر عن قصور حاد في استيعاب معنى التسامح، ذلك أن المعنى الأساس هو البحث عن أرضية مشتركة ويقينيات تبعث على الاطمئنان من أجل الوصول إلى الحقيقة التي تقف في ثنايا الكليات، فالسعي لتكوين أرضية مشتركة هدفها الأساسي الوصول إلى جوهر الحقيقة، وهذا يفتح الباب أمام إمكانية أن أكون على خطأ والآخر الذي لديه ما لا يعجبني على الإطلاق قد يكون ممتلكا لحقيقة تخفى علي. وعلى الأجمال فإن الإنسان مرهون بالمغايرة وعدم التطابق فلامعنى للتسامح أصلا إذا كانت الأمور كلها تستدعي التماثل سواء في الفكر أو العقيدة.

والتسامح كمصطلح يختلف تماماً عن اللامبالاة أو كما تفسر انها ترك الأمور تمر والتنازل لشخص كتعبير عن التهذيب بأعتبار اشتقاق الكلمة من

كلمة (سمح)، فمن غير المعقول أن أعيش دون معتقدات ولا أهتم بمعتقدات الآخرين ثم أدعي انني أبدي تسامحا إزاء أندادي في العقيدة، في الوقت نفسه فإن المؤمن الحقيقي لا يمكنه أن يجلس القرفصاء مسترخيا فيما يشاهد بأم عينيه الآخرين يذهبون إلى الجحيم، انها المفارقة التي ترسم حدود التسامح كأيدلوجية وقيمة رائدة.

إن التسامح لايعني تقبل الظلم الاجتماعي أو تنحي المرء عن معتقداته والتهاون بشأنها، إنما يعني أن يبقى المرء حرا في التمسك بمعتقداته وأن يتق بل إن يتمسك الاخرون بمعتقداتهم، والاقرار بأن البشر مختلفون ولهم الحق في العيش بسلام وهو يعني عدم فرض آراء الفرد على الغير.

كما أنه لايعني خفة الفكر وفضفاضيته أو جمود الحرية الفكرية والادبية للعقل البشري أو الخوف من تكوين افكار شخصية للإنسان أو الخوف من الحوار، كما أنه لايعني ممارسة دور الحرباء بالتلون بفكر وآخر والقفز من عقيدة إلى عقيدة. اضافة إلى أنه لايستند على المواطنة الجبانة والتي تتقبل افكارا متناقضة لتحاشي مواجهة الرأي المعاكس بالحجة والبراهين، فالتسامح اذن هو التعبير الاكثر كمالا لحرية الإيمان والتفكير، أنه تأكيد لمشاعر الضمير والاحساس.

من هنا فإن التسامح كقيمة تقف بين معياري اللامبالاة والإجبار أو القمع، لكن حدود التسامح تمتد بشكل ديناميكي لتشمل حتى دعاة المعيارين الأنفين فتلتحف اللامبالي والمتعصب وتشملهم برعايتها، نظراً لأن المبدأ الأخلاقي قادر على ممارسة دوره والتغلغل في الآخرين بخلاف المبدأ اللاأخلاقي الذي لا يحتمل خصمه.

فالبخيل مثلاً يبدي ازدراءا لمن يبذل ويعطي بل ويشعر وكأنه هو الخاسر، لكن المعطاء يبذل حتى للبخيل ويصب خيره عليه.

والمتمترس بالحصون الديمقراطية لايجد حرجا من داعية للديكتاتورية يزمجر ويهدد بخروقاته، لكن المتمترس خلف الدبابات يصعب أن يشم رائحة غير رائحة البارود.

إلا أن للتسامح تخوما وحدودا لايجوز تخطيها وتجافيها، ففي الوقت الذي يعطي التسامح حقا لكل معبر عن الرأي وإن كان مبشرا بعدم التسامح، فأنه من غير المعقول أن يقف مكبل اليدين معصب العينين وهو يرى أن اللامتسامح يسعى لتدمير التسامح في المجتمع، وكما في المبدأ الإسلامي «لاحرية لمن لا يؤمن بالحرية»، فإنه لا تسامح لمن يدمر التسامح. إضافة إلى أن الإخلال بالتزامات التسامح الأخلاقية وأدبياتها هو أيضاً تدميرا للتسامح مثل تجاوز الحقوق الفردية المشروعة للأفراد أو عدم صيانة مبادئ حقوق الإنسان وما أشبه.

ويدور جدلا في الغرب حول أقليات تقر بمبدأ العنف بل وتصل إلى حد القيام بأفعال عنيفة مستغلة ما تقدمه الأكثرية لها من تسامح وهل يجوز أسباغ التسامح عليها أم لا اللَّهُمَّ؟؟.

ويرى البعض أن هذه الاقليات من شأنها أن تلغي الديمقراطية وحرية القول والتسامح إذا ماقيض لها أن تنجح في الوصول إلى السلطة ولو ليوم واحد، بينما يرى أخرون أنه طالما ظلت هذه الاقليات اللامتسامحة تناقش وتنشر نظرياتها بأعتبارها مقترحات عقلانية يتوجب علينا أن نتركها تفعل هذا بكل حرية بيد أن علينا أن نلفت انتباهها إلى واقع أن التسامح لا يمكنه أن

يوجد إلا على أساس التبادل وأن واجبنا الذي يقضي منا التسامح مع أقلية ما ينتهي حين تبدأ الأقلية أعمال العنف[1].

إن ظهور مفهوم التسامح برز في نهايات القرن السادس عشر الميلادي في الغرب بشكل ملحوظ أثر المرارة التي لاقاها من الحروب الدينية المتلاحقة في وسط أوربا، وبطبيعة الحال فإن التسامح اخذ حيويته ومجاله في الغرب سواء في التشكيل الأيدلوجي والفكري أو التنظير القانوني، ولكنه مازال هشا كممارسة في وسط دول العالم الثالث وكأنه «طفل يتلعثم». ومرجع ذلك أن الثقافة العربية ظلت أسيرة لهاجس الخوف من وقوع الفرقة والفتنة والسعي بالمقابل لتأكيد وحدة الآمة والخشية من أن السماح بالاختلاف في الآراء والأفكار قد يضعف تماسك الأمة، لكن التسامح منظومة ثقافية حضارية هدرت فقرّت ويستحيل التنازل أو التخلي عنها.

وما يزيدها حاجة ومكوثا ارتباطها في جملة واجبات وحقوق تحف بالمرء من مثيل الملكية الخاصة والحرية الشخصية والنزعة الفردية وحماية حقوق الآخرين والتواصل الحضاري والتلاقح المعنوي بين كافة بني البشر تجعل من قيمة التسامح ذا ضرورة حتمية.

ومكونات التسامح كمنظومة مفاهيمية هي ما يلي:

١ - **الانحراف**: فما يتم التسامح معه منحرف عما يعتقده المتسامح أو يفعله أو يظن أنه يجب فعله.

٢ - **الأهمية**: فصاحب الانحراف ليس تافها.

---

(١) (بوبر، كارل - التسامح بين شرق وغرب - دار الساقي بيروت ١٩٩٢).

٣ - **عدم الموافقة**: فالمتسامح لا يوافق أخلاقيا على الانحراف.

٤ - **السلطة**: فالمتسامح يملك السلطة لكي يحاول كبح أو منع أو معارضة أو عرقلة ما يتسامح معه.

٥ - **عدم الرفض**: فالمتسامح لا يمارس سلطته فهو يتيح للانحراف أن يستمر.

٦ - **الصلاح**: فالمتسامح (بكسر الميم) صائب والمتسامح (بفتح الميم) جيد.[١]

ولو تفحصنا التشريعات الإسلامية لوجدنا أن القرآن الكريم حفل بجملة مناقبيات تدعو للتسامح وقبول الآخر والعمل المشترك والتلازم الحضاري لاصلاح الأوضاع والمجتمعات.

التسامح العقيدي

ففي مجال الدعوة إلى الدين الإسلامي وهو أشرف مجال يخاطب الله رسوله المبلغ عنه قائلًا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[٢]، ويخاطب الله تعالى الناس الذين يتوجه إليهم رسوله بالدعوة بخطاب لاضغط فيه ولا أكراه ولا تطرف فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[٣]. ويقول أيضاً: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى

---

(١) (بالدوين، توماس - التسامح بين شرق وغرب - دار الساقي ١٩٩٢).

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٠.

ٱلدِّينُ﴾[1]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2].

ثم يوجه القرآن الكريم الدعاة إلى أسلوب اللين والرفق فيقول تعالى:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[3].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[4]

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[5]. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ﴾[6].

إن الإشارات البلاغية غاية في الوضوح معلنة عن أهمية أن يكون الداعية متسامحا لينا لا أن يصبح قاضيا تتلخص وظيفته في إصدار الأحكام على الآخرين بتسفيههم وتكفيرهم وترهيبهم أو إهدار دمهم.

كما يخاطب أهل الكتاب من اليهود والنصارى بخطاب يدعوهم فيما يدعوهم إليه إلى التفاهم والاتفاق على عقيدة واحدة ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[7]، كما يدعو الله رسوله إلى عدم الاصطدام في النقاش مع

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٤) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ - ٢٢.
(٥) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

أهل الكتاب فيقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾(١).

واذا كان أهل الكتاب أو غيرهم من المشركين لا يلبي الدعوة بل يعرض عنها فلا ينبغي أن يستاء الرسول من ذلك فتلك إرادة الله ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾(٢)، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾(٣)(٤).

التسامح المعاملاتي

أما في مجال المعاملات فالقرآن يوصي المسلمين بالتسامح والعفو يقول تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾(٥). وأيضاً: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾(٦)، كما يوصي القرآن بدفع السيئة بالحسنة فيقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾(٧). ويقول: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٤) (الجابري، محمد عابد صحيفة الشرق الأوسط العدد ٥٢٢١).
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٦.
(٧) سورة القصص، الآية: ٥٤.

أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1][2].

ويقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[3].

التسامح الأخلاقي

وفي مجال الأخلاقيات يدعو الإسلام للتعافي والتصالح والعلاقة القائمة على الاحترام المتبادل والمحبة والوئام والثقة يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[4].

ويرفض الإسلام التطرف حتى في المشاعر اومعايير الحب والكره فيقول الامام علي عليه السلام (هلك فيَ اثنان محبُ غال ومبغضُ قال).

---

(١) سورة فُصِّلت، الآية: ٣٤.

(٢) (المصدر السابق).

(٣) سورة الممتحنة، الآيتان: ٧ - ٨.

(٤) سورة الحجرات، الآيات: ١٠ - ١٣.

وبرغم النشأة الغربية لمفهوم التسامح نلحظ أن نهج التسامح نهج إسلامي أصيل وله جذوره القرآنية والتاريخية برغم أنه لم يكن تحت عناوين التسامح، يقول عالم الاجتماع البارز كلود ليفي ستراوس في كتابه مدارات حزينة (باريس ١٩٥٥) «إن الإسلام هو الذي ابتكر التسامح في الشرق الأوسط والحق بنا بدل أن نتحدث عن التسامح أن نقول أن هذا التسامح ضمن حدود وجوده هو بمثابة انتصار دائم للمسلمين على أنفسهم فقد وضعهم النبي - حينما أوصاهم به- في وضع حد للأزمة الدائمة التي قد تنجم عن التناقض بين الدعوة العالمية للتنزيل وبين التسليم بتعدد العقائد الدينية»[١].

ولسنا في صدد إثبات أقدمية التسامح في الإسلام، إنما من أجل أبعاد الحساسية التي أبداها بعض مفكري عصر النهضة من غربة الفكرة واستيرادها.

من ايهما تنبع الأصالة ؟

اذا كان التطرف خرقا للعادة، فإن التسامح ملازم لكينونتنا البشرية وطبيعتنا الإنسانية التي خلقنا وجبلنا عليها. فالقابلية البشرية تؤكد إننا جميعا قد نخطئ وعلينا أن لانتكل على ما يبدو لاعيننا وكأنه كل الحقيقة والأيمان المطلق، من هنا كان علينا أن نكون مستعدين للاعتراف بأخطائنا واكتشافها وأن نطمح دائما للوصول إلى أقرب نقطة من الحقيقة والصدق وكما يقول فولتير «إننا جميعا من نتاج الضعف كلنا

(١) (سالمان، عبد الملك - مجلة الكلمة العدد ٣).

هشون ميالون للخطأ. لذا دعونا نسامح بعضنا البعض ونتسامح مع جنون بعضنا البعض بشكل متبادل وذلكم هو المبدأ الأول لقانون الطبيعة المبدأ الأول لحقوق الإنسان كافة»[1].

من هنا نحن مطالبون - من أجل تأصيل التسامح - إلى تجسيد ثمة معطيات رئيسية في التعامل والتكامل مع الآخرين:

١- أن نصغي للآخرين أيا كانوا بدافع التعلم منهم لا احترامهم فحسب، خاصة خصومنا وأندادنا. ونعني بالإصغاء ملاحقة وملاحظة قيمهم وفكرهم وطرق تفكيرهم والأسس الفكرية التي أنطلقوا منها في تدعيم رأيهم وفكرهم ومنطقهم. والإصغاء هو النظر بعمق لما يقوله دون أعتبار لشخصه أو مثالبه أو اعتباراته الشخصية وصدق الحديث الشريف إذ يقول «خذ الحكمة ولو من الكلب العقور»، «خذ الحكمة من أفواه المجانين» أو كما جاء في الأثر «لا تنظر إلى من قال وأنظر إلى ما قيل».

إن تعلم فن الإصغاء إلى الآخرين يعني ببساطة إننا راغبون في الدنو نحو الحقيقة واكتشاف أفضل أسلوب للعمل، والحكمة الانجليزية تقول: «قد أكون انا على خطأ وقد تكون أنت على صواب ونحن عبر تفاهمنا حول الامور بشكل عقلاني قد نصل إلى تصحيح بعض أخطائنا وربما نصل معا إلى مكان أقرب إلى الحقيقة أو إلى العمل بطريقة صائبة».

إن التسامح في مسيرة الفكر وحرية التعبير دون مصادرة أو قمع الآخر

---

(١) (بوبر، كارل / التسامح بين شرق وغرب - دار الساقي بيروت ١٩٩٢).

يوفر مناخا مناسبا لتلاقح الأفكار وتطورها من خلال النقد البناء والحوار الهادف مما يخلق مزيدا من التطور والإبداع في الفكرة.

يقول كارل بوبر (ان تحقق تقدم حقيقي في ميدان العلوم يبدو مستحيلا من دون تسامح، من دون إحساسنا الأكيد أن بإمكاننا أن نذيع أفكارنا علنا، من هنا فالتسامح والتفاني في سبيل الحقيقة هما أثنان من المبادئ الأخلاقية المهمة التي تؤسس للعلوم من جهة وتسير بها العلوم من جهة أخرى)[1].

٢- كما إننا مطالبون بتوفير الأجواء المناسبة للتسامح وأهمها جعل القيمة ذات مضمون حياتي في مختلف مشارب تعاملاتنا، وأولها تأصيلها في الأسرة الصغيرة وتشذيب سلوكياتنا بمزيد من التسامح. أن البيئة التي يعيش فيها الطفل يجب تهذيبها لمنع كل المثيرات التي تؤثر على حياته وتحفز مسببات العنف، فنحن في الواقع مطالبون بتكريس التعايش في مناهجنا ومدارسنا والتركيز المستمر لنمو أبنائنا وأجيالنا على التسامح.

«إننا في حاجة ماسة إلى مراجعة مناهجنا الدراسية والى استئصال الخطابات الإنشائية الوطنية الساذجة وإلا نشجع نمو مشاعر العزل العنصري بين الأطفال من جنسيته وجنسية أخرى. كما إننا يجب أن نحثهم على تفهم الثقافات الأخرى وتذوق مافيها من قيم جمالية وأخلاقية، فالتسامح في حقيقته تربية مستمرة، فمشاعر ضبط النفس وقبول الآخر والإدراك بأننا نعيش في عالم واحد تشترك فيها الأفكار المختلفة وتتعايش فيها الأعراق والجنسيات جنبا إلى جنب هو نوع من

---

(١) (المصدر السابق)

التسامي فوق المطامع والمصالح الضيقة. أن التسامح يقضي بأن نرى مصالحنا في إطار مصالح الآخرين»[1].

اننا نلحظ للأسف علاقات أسرية قائمة على الاستبداد، حيث يندر قيام روح ديمقراطية متسامحة بين الأب والأبناء، إذ يمارس الأب دور المتسلط بأعتباره الممول الرئيسي، فيما نجد علاقة الزوج بزوجته قائمة على التبعية لا الندية حيث تكون المرأة دائما الجانب الأدنى، كما نلحظ بوضوح الاستبداد المعاصر الذي يتم في سلوكيات غريبة تجاه الطبقات المتدنية في مجتمعاتنا من مثيل الاقليات أو الفئات المهمشة والمعدمة.

فيما تسيطر روح استبدادية في العلاقات بين الأفراد، ولعل في المثل السائد «أكبر منك يوم اخبر منك بسنة» دليلا واضحاً على هذه الروح إذ لاعبرة للموقع الثقافي أو العلمي الذي يحتله الإنسان الأصغر سنا.

إن على عاتق الأسرة العربية أن تعلم أطفالها مناقشة الامور العائلية كما يجب تعليم الأولاد داخل الأسرة أهمية الحوار وقبول الرأي الآخر مهما يكن مخالفا له سواء كان دينيا أو اجتماعيا أو عرفيا، ولعل ما يؤسف له أن التعليم في مجتمعنا العربي لايشجع على الحوار، فالمدرس نادرا ما يتحاور مع طلبته بل يريد منهم تلقي المعلومات المقررة في المنهج كما لايقبل منهم النقد، فيما الاب يريد من سلطته الابوية أن تهيمن على كل صغيرة وكبيرة في الاسرة والحاكم لايقبل بغير ٩٩,٩٩ ٪ من اصوات المقترعين، فهل في ظل هذه الاجواء ينمو حس النقد!!.

لذا فإن تكريس التسامح لابد أن يتغلغل في كل مفردات حوارنا

---

(١) (الرميحي، د. محمد: مجلة العربي الكويتية العدد ٤٤٢ سبتمبر ١٩٩٥).

وجنبات حياتنا والعمل على قبول الآخر في مختلف أبعاد مسيرة نهضتنا.

٣- إننا مطالبون أيضاً بالكف عن ممارسة السلطة أو استخدام القوة في التدخل بآراء الآخرين وأعمالهم ونشاطهم وأساليب تحركهم وطرق تفكيرهم، نعم بإمكاننا التنبية على المزالق التي يقعون بها أو كشف من يخل بالالتزامات الأخلاقية للتسامح أو يتجاوز قواعدها الأساسية بطريقة مشينة، ولكن لا يحق لنا أن نتدخل بآرائهم واعمالهم وأن كنا لانوافق عليها عقيديا أو فكريا أو أخلاقيا.

وهنا ينبري جدل واسع حول مفهوم الهيبة والمكنة والقدسية التي تحضى بها معتقداتنا وأفكارنا، فالكثير من الإسلاميين يرون في احترام التشريعات الإسلامية ووجوب تطبيقها ينطلق من باعث ديني وعقيدي يفرض على الآخرين تنفيذه ولو بواسطة القانون، وفي هذا السبيل يسبغون على مجمل الأوامر والنواهي الشرعية وكذلك المعتقدات والطقوس هالة القدسية وعدم جواز خدشها.

ولعل أبرز ملامح هذا الجدل ما يحدث في بعض الدول الإسلامية من دعوات لتطبيق الشريعة الإسلامية بطريقة قانونية محضة أو العمل على إصدار قوانين لمنع الممارسات الشاذة في المجتمع دون أعتبار لما يمثله ذلك من ممارسة لحدود السلطة وحدود التسامح والحقوق الإنسانية ودون أعتبار لما يمكن أن تحدثه مثل هذه القوانين من خرق في المبادئ الإسلامية وتشريعاتها قد يتسع، وحينها لايمكن فتقه.

إن التسامح لابد أن يعلمنا لجم سلطتنا وكبح جماح القوة، من أجل إقناع الآخرين بالمنطق للوصول للحقيقة دون الحاجة إلى سيف ونطع

وعصى وهراوات!! ولعل أروع شاهد على ما نقول عندما دخل النبي الأكرم ﷺ مكة فاتحا دفع عليا ليحمل الراية ويصرخ «اليوم يوم المرحمة اليوم تصان الحرمة» حينما كان يحملها صحابيا اخر ويصرخ اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة. كما عفى ﷺ عن كل المجرمين وقادة الحرب في قريش ولم يعاقب على جريرة خلال سنوات الدعوة إطلاقا حتى أضحى محمدا ﷺ تهواه القلوب وتعشقه الأفئدة ولو على مشارف القسطنطينية...

أما قال قولته الشهيرة «اذهبوا فأنتم الطلقاء» لكل من ناصبه العداء حتى عفى عن وحشي قاتل عمه الحمزة وهبار قاتل ابنته زينب عليها السلام كما جعل الراية لأبي سفيان وأرسله مع كتيبة إلى غزوة حنين وأعطى له تلك العطية الجزيلة ليبرهن على روح التسامح وتأثيرها في الواقع السياسي.

٤- وفوق كل ذلك فنحن مطالبون بتكريس التسامح في الحياة السياسية ففي ظل التعدد في التركيبة التنظيمية والحركية والفئوية في مجتماعتنا، فأنه لابد من تقبل قيام أي أقلية أو طائفة أو تنظيم سياسي أو ديني تشكيل حزب سياسي يمثله والقيام بالترويج لافكاره وأن كان مناهضا لاطروحاتنا، فليس لنا الحق بأدعاء امتلاك الحقيقة السياسية ومصادرة رأي الاخرين. كما أن التسامح في الحياة السياسية يتطلب ممارستنا للعمل السياسي بشئ من النقاء والتشذيب والابتعاد عن المهاترات والدس والمكر والخداع، إذ أن هذه الممارسات تكون مدفوعة بدافع الانتقام أو إسقاط العدو المخالف لآفكاري وعقيدتي.

والمهم ايضا أن نكرس أدبيات التسامح السياسي في صفوف المناصرين والجماهير حتى نصل لمرحلة قبول أنضمام اعضاء من ابناء

الاقليات الأخرى للحزب الإسلامي دون أي شعور بالحرج.

اضافة إلى ذلك فإنه من الضرورة بمكان تكريس المشاركة السياسية للأقليات وتطبيق مبدأ «لهم مالنا وعليهم ماعلينا» وتجذير مبادئ حقوق الإنسان والمساواة وحفظ كرامة الإنسان ضمن نطاق الدولة المدنية الحديثة، وهذا سيفتح المجال على مصراعيه لتحقيق مايمكن أن نطلق عليه «بالشراكة الحضارية» المتمثلة في السعي المشترك بين كافة الديانات والطوائف لبناء حضارة الغد وتحقيق ازدهاره.

يذكر التاريخ أن الاشعث بن قيس الكندي بنى في داره مأذنة فكان يرقى إليها إذا سمع الاذان في أوقات الصلاة في مسجد جامع الكوفة - وكان الولي انذاك علي بن ابي طالب عليه السلام وهو المؤذن - فيصيح الاشعث من أعلى مئذنته: يارجل انك كاذب ساحر!! ولم يأذن الامام لأحد أن يتعرض له بسوء[1].

معطيات التسامح

التساؤل الهام والذي يفترض أن نقتفي أثره لتعزيز هذه الخصيصة الحضارية في محيطنا الاجتماعي هو ماذا سنجني من التسامح وماذا ستمنحنا من مكتسبات ترتقي بنا إلى مصاف التحضر ؟؟

١- تعزيز الحرية:

إن التسامح يفتح أفاقا جديدة في فهم حقوق الاخرين وواجباتهم تجاه

---

(١) (الشيرازي، الامام محمد مهدي: الحكومة الإسلامية في عهد الامام امير المؤمنين دار الفكر الإسلامي ١٩٩٣).

غيرهم وعدم فرض قيودا على الاخرين ما يتيح تحول الأفراد والمجموعات لمزيد من التمدن ويؤصل من قيمة الحرية.

إن لجم شقشقات السلطة والقوة لدى الفرد والتفكير بطريقة متعايشة محبة للأخرين يدعو لمزيد من تشذيب سلوكياتنا وتقنينها -أخلاقيا- نحو الحقوق والواجبات التي تؤطر حياتنا. فالسلطة المتسامحة حينما تترك للشعب أن يكون مسئولا لما سيختاره لنفسه، فانها في واقع الأمر ستساهم في دفع الأفراد للحد من سلطتهم تجاه غيرهم وسنجد انفسنا في احضان دولة مدنية يحكمها القانون وتسودها التبادل القيمي النفعي وتتكرس العدالة بشكل اوتوماتيكي. يقول بيتر نيكولسون أحد مفكري الغرب «أن فرض المرء قيودا على نفسه جزء ضروري من كونه متسامحا وهو بالتالي عنصر مكون لحريته».

بل إن التسامح سيساهم بجدية في تكريس الاطر الديمقراطية، ذلك أن جزءا كبيراً من مفهوم الديمقراطية يرتبط بالمشاعر الشخصية فأحترام الاغلبية لرأي الاقلية يتطلب روحية معنوية خاصة تتقبل احترام الاقلية وترتضي عن طيب خاطر ممارسة الاقلية حقوقها المشروعة وشعائرها. والركون لرأي الاغلبية بحاجة ماسة إلى علو النفس للاذعان لمن لا يتفق معه. وفي كلتا الحالتين فإن التسامح يؤصل منهجية العمل بأدبيات الديمقراطية ويدفعها للتقنين والاطر القانونية.

٢- تكريس المفهوم التكاملي للعدل:

إن التسامح لايحق له أن يسحب تسامحه أو يتراجع عنه، وكل شخص لديه الحق في التسامح المساوي لحقوق الاخرين، فلانستطيع أن نقول أن

التسامح يقتصر على أرائنا واعمالنا وسلوكياتنا ولايحق لآراء وأعمال الآخرين التمتع به. أن ذلك سيكرس مفهوما تكامليا جديدا للعدالة في المجتمع ويضيف أبعادا أكثر قيمية لتناصف وتوزع الحقوق على الجميع.

٣- صناعة الوعي:

يقول الرسول الاكرم ﷺ «الرفق رأس الحكمة».

لاشك أن التسامح يدعو لفهم الافكار واستيعابها ويعمل على استحواذ انتباهنا لخلفيات كافة الافكار المحيطة بنا وخاصة افكار الاخرين المنافسين أو الانداد، وأن كانت وجهة نظرنا تبدو غريبة وكريهة وغير منطقية. ففي الوقت الذي تطالب وبإلحاح الاهتمام الجدي بما تقوله وتطرحه من أفكار ومعتقدات فأنت مطالب ايضا بالاستماع والانتباه لما يقوله الاخرون.

«فالتسامح يتعزز بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد، أنه الوئام في سياق الاختلاف، وهو ليس واجبا أخلاقيا فحسب وانما هو واجب سياسي وقانوني ايضا وهو الفضيلة التي تسهل قيام السلام ويسهم في احلال ثقافة السلام عن ثقافة الحرب»[1].

إن التبادل الأخلاقي مع الاخرين وفكرهم ينطوي على صناعة وتأصيل الوعي المتزايد ويشكل خلفية ثقافية ناهضة تقبل على قراءة وتفحص ما يتبناه الآخر المختلف كما يتفحص الاخرون فكرنا، مما يثري الساحة ويحدث موجة من التلاقح الفكري والحيوية الثقافية في الساحة. إن ثقافة التسامح تفتح أبواب المعرفة على مصراعيها بينما ثقافة الموت لاتفهم غير منطق

---

(١) (مايور، فيدركو مدير عام اليونسكو - صحيفة الاتحاد الاماراتية ١٩٩٧/١١/٤).

القوة!!.

والتسامح كذلك يؤسس قاعدة تغيير افكار الاخرين على أسس عقلانية وهو بحد ذاته جهد ثقافي وفكري جبار مما يلزم إحداث تجديد فكري وثقافي في الامة يتناسب وعقلانيته قادر على مجاراة النهوض الفكري المنتشر.

إن الساحة العالمية تنبئ عن مساعي مكشوفة لمخططات غربية وصهيونية مشبوهة لتفتيت المنطقة واثارة النزاعات وتفكيك الامة العربية والإسلامية والحاقها بركب الغرب وتفجير القنابل المتولدة من التعدد الطائفي والعرقي والديني، ومن غير تكريس التسامح فإنه من الصعب العمل على صهر الاقليات وضبط سلوكياتهم وأستيعاب مايدور في الخفاء من مؤامرات. ولاشك أن المسلمين بالتسامح قادرون على أختراق المخططات وكشف مساوئها والعمل على أزالة الذرائع التي يسوقها البعض من الغرق في أتون المكائد الغربية والصهيونية.

ولابد بالتسامح العمل على صياغة ديناميات لازمة وآليات عمل مناسبة لصهر الجميع في بوتقة المجتمع والدولة وعدم اتاحة الفرصة لتغلغل مشاعر الفراق والشتات والضياع.

٤- نقد الذات:

يفعل التسامح فعل السحر في ممارسة النقد الذاتي، إذ أنه يلح على رواده توجيه التفكير نحو الحقيقة والوصول إلى جوهر الفكرة واصالتها، لا التفكير بنزعات النفس والهوى الملازم للفكرة، ولنا أن نتصور كيف يمكن أن يحافظ المتسامحون على الروح النقدية من كافة المعضلات

والمشاكل والأحداث التي تحيق بهم إذا أمتلكوا روحاً شفافة تبحث عن الحقيقة وتؤثر من ذاتها لاجل نصرة الحق.

كما أنه يشجع المرء على تفحص افكاره وارائه ومنطلقاتها الجذرية وتحليل الوسائل المعرفية واعادة النظر في مضامين الافكار والمفاهيم دون الاستغراق في نظرة احادية أو تعليق القصور على مشجب الاخرين، الأمر الذي يفضي إلى أحداث بعض التطور أو تنقيح وتعديل أو رفض بعضها أو كلها أن لم نقل يفضي إلى تعزيزها.

إن ممارسة نقد الذات والافكار والاطروحات يشكل قاعدة جوهرية في أدراك رفيع لتلك الافكار والمضامين بعيدا عن التشنج والتعالي. ولو أمعن رواد الحركة الإسلامية في التسامح وأبتعدوا عن عقلية الاحتكار والتفرد والوصاية على عقول وتفكير الاخرين لوجدوا أنفسهم في حضن النهضة الثقافية حيث تزدهر تطلعاتهم وتنهض لديهم افكارا مبدعة، لكن النظرة الفوقية دائما لاتتيح التمتع بمميزات واراء ذلك الادنى خاصة إذا اصطبغت أفكار وأراء ذلك الادنى بلون بالكفر وانطبعت بماركة التنجيس!!.

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الغرب نمى على أثر حضارة إسلامية كانت تكبو وتنهض من روح التسامح الذي تلبس به دون حرج من منجزات هذا الخصم -الإسلام-. ولو مارس المسلمون دورا نقديا لافكارهم مستعينين بما تؤهله منجزات الغرب وتطلعاته لكانوا في مصاف الرقي.

إن اعمال العقل وتشريح مواطن الخلل والضعف والتطهير الأخلاقي

لنوازع التعصب والتسلط والاستبداد تشكل مراجعة يقظة ومستمرة ومتطورة للبنى الفكرية والحركية في المفاهيم والنهج والممارسات[1].

٥- عقلانية المنهج:

المتسامح بطبيعة الحال أقرب للحوار بما يؤهله مبدأ التسامح من قدرة على التقارب مع الاطراف الاخرى. ولاشك أن الحوار يعتبر اسلك الطرق لتكريس العقلانية إذ أن الاجواء المحيطة بالتسامح تسمح بالتفاهم حول الامور أياً كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية بشكل عقلاني علمي لأن الفكرة هي مقياس الحوار، وبالتالي ستنهض للسطح جملة المبادئ العقلانية الاقرب للحقيقة والاقناع وأن السجال النقدي سيصب في خدمة الحقيقة دوما خاصة وأن المتسامحين يقرون بمبدأ (قد أكون على خطأ وقد تكون على صواب وأن لم نتفق فإن الاصلح يبقى ولو بعد حين).

يقول الامام علي عليه السلام (رأس العلم الرفق وأفته الخرق).

إن تنقية أفكارنا وأخضاعها للمنهج العقلاني سيدر منفعة كبيرة لنهوضنا الحضاري والعلمي، حيث الحقائق ستجلو واضحة وسنكون مؤهلين لممارسة دور نهضوي بالغ الاهمية في زمننا القادم الجديد ويكفينا فخرا أن نؤكد أن التسامح سيجعل الكلام بدل الحسام واللسان بدل السنان والتخاطب بديلا للخصام.

وعلى النقيض من ذلك فإن التطرف والعنف والتزمت مظاهر نبذ

---

(١) (الزميع د. علي: رؤية في الافاق المستقبلية لتجديد الفكر الإسلامي - ندوة الفكر الإسلامي المعاصر بين البناء والهدم يناير ١٩٩٥).

العقلانية في المشروع الاصلاحي، إذ أن دعاة العنف يمتلكون نظرة إلى الواقع شديدة الانحياز والانحراف في انتقائيتها، فهم لاينتبهون كثيرا إلى الوقائع والحقائق والدليل على ذلك انهم لايقدرون حجم المعاناة التي يتسببون بها في عملهم الإرهابي، وبلاشك فإن المتزمت يترك العنان لاهوائه الخاصة إلى درجة يكون غير قادر على ممارسة أي تفكير منطقي، فهو مجرد آلة طيعة تحت تخدير التعصب يعميه عن رؤية غير الأشياء التي يؤمن بها حتى يصل لمرحلة التضحية بنفسه لتبرير عمله!!.

يقول الامام علي عليه السلام (ليكن شكيمتك الرفق فمن كثر خرقه قل عقله).

ويقول أيضاً (لسان الجهل الخرق).

من أجل مجتمع مدني

كي نطوي صفحة العنف والتطرف في مجتمعاتنا الاهلية، لابد أن ننتقل إلى عصر المدنية ونزيح العسكرتارية والمركزية في شئون مجتمعاتنا الادارية والبنوية.

الامر ليس بخارق للعادة أو صعب مستصعب لايرقى لها إلا ذو حظ عظيم، انها خطوة تتم ضمن تدرج اجتماعي وسياسي مبرمج من خلال إحداث تحولات مرحلية وبناء ذهنية فكرية مجتمعية وتهيئة الظروف اللازمة لنشأة المدنية.

والمجتمع المدني المقصود فيه هو مجموع التشكيلات والكتل والمؤسسات المهنية والاجتماعية والسياسية المنظمة والمستقلة بفئاتها

ونظمها وطبقاتها الاجتماعية تنطلق نحو تحقيق أهداف وأراء اعضائها ونقلها إلى الشارع السياسي والاجتماعي والتأثير على سلطة اتخاذ القرار في المجتمع. كما أنه حزمة النظم والقوانين المؤسسة لبنيان اطر مدنية تؤصل العمل المؤسسي وتبني ركيزة الدولة المنفصلة عن الأفراد كاشخاص.

إن المجتمع المدني ماهو إلا صيغة عقلانية يتحرك في اطار قيمي وأخلاقي لتأسيس نظام الوسيط بين الفرد والدولة ينهض بمهمة تنظيمية داخل اطر المجتمع، يحدث التغيير فيها ويشكل صيغ جديدة على اعتاب صيغ بالية.

هل من الممكن أن تنزح مجتمعاتنا نحو المدنية بهذه السهولة المفرطة؟ نعم ولكن نحن بحاجة إلى ثمة مرتكزات تبني جذور المدنية:

١ - أن الإنسانية لايمكن أن تحدث تغييرا من دون الولوج إلى مسار التاريخ وقبول تحولاته وهضم القدر المعرفي المتراكم والمستجد. والمدنية هي مجرد مرحلة مسبوقة بثمة تطورات متلاحقة من نشأة المؤسسات وتطوير آلية نموها وإحداث تغيرات في ذهنية المجتمع ليتحول من متبوع يتحرك آلياً ضمن نسق نظم ابوية تحيط به وتصبغ المجتمع في لون معرفي واحد، إلى مجتمع مستقل ناهض التفكير مبدع يتحرك ضمن حدود حريته والحقوق الممنوحه له لينتقل إلى مقعد قيادة وتوجيه المجتمع والعمل على تنويع التخصص (ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم). فالمدنية ماهي إلا لون من الوان دفاع المجتمع عن نفسه.

٢ - تطور النظام الاجتماعي العام - تكون الدولة فيه احدى طبقاته -

بحيث يتناسق والوظائف المدنية الجديدة مثل الحالة الثقافية وطبيعة النظام السياسي وايدلوجيته والفئات الحاكمة في المجتمع والآليات الاقتصادية المسيرة وتحديث طرق تنظيم النظام التربوي والاجتماعي والسياسي والتعليمي ليتناسق مع هذا التطور.

٣ - نهوض الثقافة المدنية القائمة على فلسفة تأصيل طرائق التعددية وبناء مفهوم جديد للمواطنة يقوم على احترام الحريات والحقوق الممنوحه للفرد والتداول السلمي للسلطة ورفض كافة أشكال الاستبداد والدكتاتورية في كافة مناحي الحياة وهذا يتطلب سعيا حثيثا نحو تغيير كل مؤسسات الدولة وطرقها.

٤ - الشخصية المستقلة للمجتمع - من خلال مؤسساته وهيئاته وتشكيلاته المتعددة - في مقابل الدولة، ومنع تمدد الدولة خارج دائرة الدستور والصلاحيات القانونية. فالمدنية مواجهة حاسمة لتمركز السلطة وتقليص سلطتها وعدم تهميش دور الامة في مقابل سلطانية الحاكم وموروثات التاريخ الغابر التي قدسته واعتبرته خليفة راشد واامير للمؤمنين!!.

٥ - القبول بالاواصر المادية في التحول إلى مجتمع المدينة، حيث أن الآصرة المادية ونتائجها النفعية والمصلحية تفرض نظاما كاملا للحياة تتأسس فيه علاقات انتاج تتجاوز النمط البدائي إلى ماهو مؤهل لتكوين مجتمع مركب تتقابل فيه المنافع والحاجات، والواجبات والحقوق، وهو أمر يحفز الدافع الفردي في الاداء، ويخلق مقاسات للتفوق تتناسب مع الكفاءة، ونوع الخدمة العامة ودرجتها فينصف الذكاء والجهد بدلًا من أن يجري المنح المجاني

للمراتب على أساس النسب والنقاء القبلي المزعوم أو الولاءات العائلية.

المدنية أحياء لثقافة السلام

حينما تتحرك الثقافة في حصون الناس وعقولهم تحدث تغييرا ملموسا على أرض الواقع، وبناء الفكر المدني ماهو إلا احياء لثقافة السلام واللاعنف من خلال التزام الإنسانية والمجتمعات والأفراد بمجمل القيم والتقاليد والعادات والتصرفات التي تستند إلى أحترام الحياة والشخص البشري وحقوقه ونبذ العنف وتحقيق المساواة بين كافة ابناء البشر، واحترام حقوق الإنسان والعدل والتضامن والتسامح والتصدي للتمييز بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين، وقبول الاختلاف وتحقيق التفاهم بين الامم والدول والمجموعات العرقية والدينية والثقافية.

ولما كانت الحروب الماضية والازمات الدولية المعاصرة ناتجة عن اعتبارات عرقية وايديولوجية ومن ميادين التطرف الديني والعنصرية وعدم التسامح، فإن اعادة قراءة التاريخ بنظرة انتقادية مهمة عاجلة من أجل ازالة كل مخلفات ثقافة الحرب.

وكلما انغرزت المدنية في حصون الامم، تطلب اندساس ثقافة السلم في ادمغة البشر، سلم الحرية والسعادة والمساواة، يحظى فيه الجميع التقدير ويتقاسمون رغد الحياة، لاسلم الصمت والنكوص.

وثقافة السلم تقوم على حقيقة (ان الآخر هو أنا) وأن السبيل الوحيد لمعالجة مشكلات التهميش واللامبالاة والكراهية والعدالة في المجتمع هو معرفتنا بالاخرين واحترامهم ووقف الانتهاك واستخدام العنف.

هل الفرد مجبر على أن يكون جزءا محركا وفاعلا في المجتمع المدني؟؟.

في الواقع الطواعية أمر هام في الانتماء لمؤسسات المجتمع المدني وإلا فإن الاجبار عودة لمخلفات الفكر الاستبدادي والمؤسسات الارثية، ورجوع لطريقة السلطة الابوية والهيمنة الفوقية التي قد تقمع آماله وتطلعاته. والحل الامثل أن تتاح له كامل الحرية لممارسة حقه في التعبير والانتماء وهو كفيل بجعل مشاركته أكثر فاعلية وايجابية.

إن المجتمع المدني اطروحة اصلاح شامل على مستوى السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة، واعادة تنظيم العلاقة بين الدين والدولة، الديمقراطية والفرد الواحد، المشروعية والنظم القائمة، والعمل على إحداث تغيير في اصول البنية الاجتماعية لنستطيع بناء مجتمع متحضر ناهض يحقق السعادة والازدهار للفرد والمجتمع.

* * *

خاتمة

في ختام بحثنا نورد بعض الروايات والاحاديث الواردة بشأن اللاعنف:

الرفق:

عن معاذ بن مسلم عن ابي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الرفق يمن والخرق شؤم).

وعن جابر عن ابي جعفر عليه السلام قال: (ان الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لايعطي على العنف).

وعن موسى بن بكر، عن أبي الحسن عليه السلام قال: (الرفق نصف العيش).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (ان الله عز وجل رفيق يحب الرفق).

وعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ان الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولانزع من شيء إلا شانه).

وعن أبي المقدام رفعه، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (ان في الرفق الزيادة والبركة، ومن يحرم الرفق يحرم الخير).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (مازوي الرفق عن أهل البيت إلا زوي عنهم الخير).

وعن أبي الحسن عليه السلام قال: - وقد جرى بيني وبين رجل من القوم كلام - فقال عليه السلام لي: (أرفق بهم، فإن كفر احدهم في غضبه، ولاخير فيمن كان كفره في غضبه).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: (من كان رفيقا في أمره نال مايريد من الناس).

وقال صلى الله عليه وآله: (ان الله رفيق يحب الرفق في الامور كلها).

وهن هشام بن الحكم، عن الكاظم عليه السلام أنه قال: (ياهشام عليك بالرفق، أن الرفق خير والخرق شؤم، أن الرفق والبر وحسن الخلق يعمر الديار ويزيد في الرزق).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسين عليه السلام: (يابني رأس العلم الرفق وآفته الخرق).

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: (ما أرتج أمر وأحجم عليه الرأي واعيت به الحيل إلا كان الرفق مفتاحه).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (الرفق رأس الحكمة، اللهم من ولي شيئاً من امور أمتي فرفق بهم فأرفق به، ومن شق عليهم فأشقق عليه).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (الرفق ييسر الصعاب ويسهل الاسباب).

وقال عليه السلام: (الرفق بالاتباع من كرم الطباع).

وقال عليه السلام: (رأس الجهل الخرق).

وقال عليه السلام: (ليكن شيمتك الرفق فمن كثر خرقه قل عقله).

وقال عليه السلام: (لسان الجهل الخرق).

الحلم:

عن محمد بن عبد الله قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: (لايكون الرجل عابدا حتى يكون حليما).

وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: (أنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه قبل غضبه).

وعن حفص بن أبي عائشة، قال: بعث ابو عبد الله عليه السلام غلاما له في حاجة فأبطأ فخرج على أثره لما أبطأه فوجده نائما فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه، فقال له ابو عبد الله عليه السلام: (يافلان والله مابالك تنام الليل والنهار، لك الليل ولنا منك النهار).

وعن أنس بن محمد عن ابيه، عن جعفر بن محمد، عن أبائه عليهم السلام في وصية النبي صلى الله عليه وآله قال: (ألا أخبركم بأشبهكم بي خلقا ؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: أحسنكم خلقا، وأعظمكم حلما، وأبركم بقرابته، وأشدكم من نفسه انصافا).

وعن الحسين بن يزيد، عن جعفر بن محمد، عن أبائه، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (والذي نفسي بيده ماجمع شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم).

وعن نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (أول عوض الحليم من حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل).

وقال عليه السلام: (ان لم تكن حليما فتحلم فأنه قلّ من تشبه بقوم إلا

أوشك أن يكون منهم).

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: (بسط الوجه زينة الحلم)

وعن الامام علي عليه السلام أنه قال: (تعلموا الحلم فأن الحلم خليل المؤمن ووزيره).

قيل للامام الحسن بن علي عليه السلام: مالحلم ؟ قال كظم الغيض وملك النفس.

وعن الامام الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: (الحلم زينة).

وعن الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: (ماشيب شيء بشئ من حلم بعلم).

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال:(الحلم سراج الله.. والحلم يدور على خمسة أوجه: أن يكون عزيزا فيذل، أو يكون صادقا فيتّهم، أو يدعوا إلى الحق فيستخف به، أو أن يؤذي بلا جرم، أو أن يطالب بالحق ويخالفوه فيه فأن آتيت كلا منها حقه فقد أصبت).

وعن الامام محمد الجواد عليه السلام أنه قال: (الحلم لباس العالم فلاتعرين منه).

العفو وكظم الغيظ:

قال رسول الله ﷺ في خطبة له: (ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والاخرة ؟ العفو عمن ظلمك وتصل من قطعك، والاحسان إلى من أساء اليك واعطاء من حرمك).

عن ابي جعفر عليه السلام قال: أن رسول الله صلى الله عليه وآله أتي باليهودية التي سمت الشاة للنبي صلى الله عليه وآله فقال لها: ما حملك على ماصنعت؟ فقالت: قلت أن كان نبيا لم يضرّه وأن كان ملكا أرحت الناس منه. قال: فعفا رسول الله صلى الله عليه وآله عنها.

وعن ابن فضال قال: سمعت ابا الحسن عليه السلام يقول: ما ألتقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفوا.

قال ابو عبد الله عليه السلام: (مامن عبد كظم غيظا إلا زاده الله عز وجل عزا في الدنيا والاخرة وقد قال الله عز وجل: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] وأثابه الله مكان غيظه ذلك).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: من كظم غيظا وهو يقدر على أمضائه حشا الله قلبه أمنا وأيمانا يوم القيامة.

وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحب السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردها بحلم وجرعة مصيبة تردها بصبر.

دور الرفق واللاعنف في الحياة:

عن محمد بن الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه، عن ابي جعفر عليه السلام قال: (ان لكل شيء قفلا وقفل الإيمان الرفق).

وعن أحمد بن زياد بن أرقم، عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق، والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال والرفق لايعجز عنه

---

(١) آل عمران، الآية: ١٣٤.

شيء والتبذير لايبقى معه شيء أن الله عز وجل رفيق يحب الرفق).

وعن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (لو كان الرفق خلقا يرى ما كان مما خلق الله شيء أحسن منه).

وعن موسى بن بكر، عن أبي الحسن عليه السلام قال: (الرفق نصف العيش).

وعن عمر بن أبي المقدام رفعه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (ان في الرفق الزيادة والبركة ومن يحرم الرفق يحرم الخير).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: (ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجرا وأحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه).

دور تداول الرأي في اللاعنف:

عن ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام قال: (في التوراة أربعة أسطر: من لايستشير يندم والفقر الموت الاكبر، كما تدين تدان، ومن ملك أستأثر).

وعن سماعة بن مهران، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (لن يهلك أمرء عن مشورة).

عن الامام علي عليه السلام أنه قال: (لا مظاهرة أوثق من المشاورة ولا عقل كالتدبير).

وعنه عليه السلام أنه قال: (من أستبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها).

وقال عليه السلام: (خاطر بنفسه من استغنى برأيه).

وعن المفضل بن عمر قال: قال الصادق عليه السلام: (من لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر من نفسه، لم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه).

وعن عمر بن جميل، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (من لم يستشر يندم).

وقال ايضا: (من استقبل وجوه الاراء عرف مواقع الخطأ)

وقال ايضا: (لا رأي لمن أنفرد برأيه)

وقال: (ماعطب من استشار).

وقال عليه السلام: (من شاور ذوي الالباب دل على الرشاد).

وقال عليه السلام: (لا تشر على المستبد برأيه).

وعن موسى بن جعفر عليه السلام قال: (من استشار لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا).

روايات في اللاعنف:

يروى أن عليا عليه السلام لما قاوم الاعداء في حرب الجمل وأنتصر عليهم كان يستطيع أن يؤسرهم جميعا لكنه لم يفعل ذلك وحين كان يزور أحد مراكزهم صاحت في وجهه نساؤهم وواجهنه ببذئ الكلام فقالت (صفية بنت عبد الله بن خلف الخزاعي): يا قاتل الاحبة يامفرق الجماعة أيم الله نساءك منك كما أيمت (رملت) نسائنا وأيتم الله بنيك فيك كما ايتمت ابناءنا من ابائهم «فوثب الناس إليها (أي ليؤدبوها) فقال عليه السلام: كفوا عن

المرأة فكفوا عنها. فقال عليه السلام لها: لو كنت قاتل الاحبة لقتلت من في هذه البيوت. ففتش فكان فيها مروان وعبد الله بن الزبير.

سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلا يشتم قنبرا، وقد رام قنبر أن يرد عليه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: مهلا يا قنبر دع شاتمك مهانا، ترض الرحمن وتسخط الشيطان وتعاقب عدوك، فوالذي فلق الحب وبرأ النسمة، ما أرضى ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصم ولا عوقب الاحمق بمثل السكوت عنه[1].

حرر في ١/ ٢/ ٢٠٠١

فانكوفر

* * *

(١) مصادر الروايات والأحاديث:
- بحار الأنوار للمجلسي، الأجزاء ٧٤ - ٧٥ - ٦٨.
- أمالي الشيخ المفيد المجلس الرابع عشر ، طبعة النجف الأشرف.
- الصياغة الجديدة لعالم الحرية والرفاه والسلام - سماحة السيد محمد مهدي الشيرازي
- مركز الفكر الإسلامي ١٩٨٥.

مصادر الروايات والاحاديث

١ - القرآن الكريم.

٢ - نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام شرح محمد عبدة الطبعة الرابعة ١٩٨٩ بيروت دار البلاغة.

٣ - ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، إبراهيم، د. حسنين توفيق.. مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٢.

٤ - العنف السياسي ترجمة عبدالكريم محفوظ وعيسى طنوس ١٩٨٦.

٥ - مجلة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث - بيروت، العدد ٦ و٣ و١٨.

٦ - ظاهرة العنف والتطرف مجموعة الأبحاث والمناقشات - منتدى التنمية مايو ١٩٩٦.

٧ - مقالات المؤتمر السادس للفكر الإسلامي - طهران ١٤٠٨هـ.

٨ - على وحقوق الإنسان، جرداق، جورج منشورات دار الحياة بيروت.

٩ - الحكومة الإسلامية في عهد الإمام علي عليه السلام: الشيرازي، محمد مهدي.

١٠ - شرعية الاختلاف: اليوسف، عبدالله منتدى الكلمة للدراسات والبحوث دار الصفوة بيروت ١٩٩٦.

١١ - الصياغة الجديدة لعالم الحرية والرفاه والسلام: الشيرازي، محمد مهدي مركز نشر الفكر الإسلامي الطبعة الأولى ١٩٨٥.
١٢ - التعددية والحرية في الإسلام: الصفار، حسن.
١٣ - العنف والسياسة في الوطن العربي تحرير الدكتور أسامة الغزالي حرب منتدى الفكر العربي عمّان ١٩٨٧.
١٤ - مذهب ابن أدم الأول: سعيد، جودت الطبعة الخامسة.
١٥ - محكمة الفكر: ثابت، مصطفى الشركة العالمية للنشر والتوزيع تورونتو ١٩٩٧.
١٦ - مجلة البصائر العدد ٩ و١٥.
١٧ - سيكولوجية التعصب: أندريه هاينال وميكلوس مولنار وجيراردي بوميج دار الساقي ١٩٩٠.
١٨ - التسامح بين شرق وغرب: بوبر، كارل وبالدوين، توماس دار الساقي بيروت ١٩٩٢.
١٩ - صحيفة الوطن الكويتية وصحيفة القبس الكويتية وصحيفة السياسة الكويتية وصحيفة الشرق الأوسط اللندنية وصحيفة الحياة اللندنية.
٢٠ - مجلة المجتمع الكويتية ومجلة المسلم المعاصر ومجلة الأضواء الإيرانية ومجلة العربي الكويتية.

المحتـويـــات

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٣
مقدمة	٥
مدخل ١ : ملامح التشويش والغموض	٩
مدخل ٢ : هل نحن أبرياء	١٩
الفصل الأول : في فلسفة اللاعنف	٢٥
الفصل الثاني : الإسلام والسيف!!	٤٩
الفصل الثالث : العنف . . الدوافع والأسباب	٧٩
الفصل الرابع : لماذا اللاعنف؟؟	١٠٧
الفصل الخامس : هل اللاعنف ثقافة انهزامية؟؟	١٢٩
الفصل السادس : آليات اللاعنف	١٤١
الفصل السّابع : في وعي التسامح	١٧١
خاتمة :	١٩٦

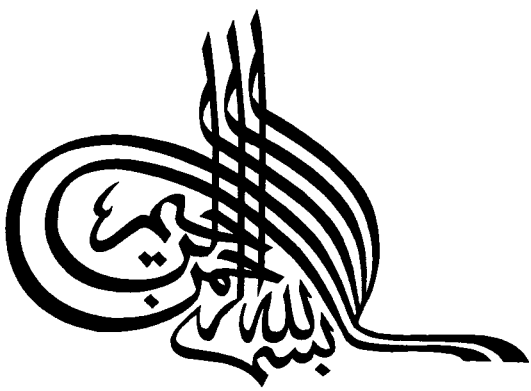
بسم الله الرحمن الرحيم